

الفصل الثالث

الفكر الإسلامى والطبيعة الانسانية

فى الفصلين السابقين تناولنا « التربية والطبيعة الانسانية » فى بعض الفلسفات الغربية وخصصنا من الفلسفات الغربية المثالية، والطبيعية، والوجودية والماركسية ، والبرجماتية . وذكرنا أن رؤية هذه الفلسفات للطبيعة الانسانية كانت متعددة . كما أن الفكر التربوى الناجم عنها كان أيضا متنوعا . وذكرنا أن هذه الفلسفات كانت اجتهادات فكرية دعت اليها تطورات الحياة وتغيرات الزمن . ومن ثم فإن هذه الفلسفات كانت محدودة الأجل ، وكان بقاؤها مرتبطا بضرورة عصرها ، حتى اذا مازال الباعث عليها زالت معه . وهنا كان التعاقب بين الفلسفات ، والتناقض فيها . فما يصلح لليوم لا يصلح للغد ، وما تستجيب له بيئة لا تستجيب له أخرى فالمثالية مثلا لم تكن لتصلح لمعالجة أحداث الحاضر وحاجاته . والماركسية مثلا لم يكن مقدر لها أن تضيع وتستشرى فى أوروبا أو امريكا مثلا .

كل هذا لأن هذه الفلسفات كانت نتاج العقل الانسانى وحده ، وحتى التى اصطبغ منها بالصبغة الدينية كان متأثرا بظروف العصر وثقافته .

ونحن بحكم التخلف الثقافى الذى عشناه طويلا كنا نتوجه بفكرنا طورا الى هنا وطورا الى هناك ، مدفوعين بالرغبة الملحة فى اللحاق بالدول التى ظننا أنها قطعت شوطا غير قصير فى ركب الرقى والحضارة ، فأغفلنا تراثنا ، ولم نحاول أن نزيل عنه غبار الجمود والتخلف . وأن نعيد اليه نصاعته ووضاءته ، وأن نتخذ منه مصدرا لفكرنا التربوى يلائم خصائصنا الثقافية . وينسجم مع بيئتنا الاسلامية التى عشنا فيها .

ومن الواضح أن هذه الفلسفات على اختلاف اتجاهاتها ، وتباين مناسطها، قد اتسمت بالتطرف والمغالاة ، فالمثالية غالت فى الجانب الروحى وتطرفت فيه ، والطبيعية غالت فى الجانب الغرائزى وبالغت فيه ، والوجودية غالت وتطرفت

عندما أغفلت كل الجوانب الا جانب الذات ، والتأكيد على فردية الانسان .
والماركسية امنحت في الغلو عندما نظرت للانسان نظرة مادية بحتة ، وفسرت
سلوكه بكل مظاهره تفسيراً مادياً . والبرجماتية بالغت عندما اهتمت المستقبل
وركزت على الحاضر ، ولم تعترف الا بالقيم النفعية التي يمكن ممارستها عملياً
وبصورة واقعية .

من هنا تتضح الحاجة الى ضرورة العودة لديننا الاسلامي نستلهمه فكرنا
التربوي حتى يكون فكراً رائداً ببناء مساهمها في احداث التغيير وتطور المجتمع ،
طالما أن التربية كانت دائماً في كل الفلسفات وعبر عصور التاريخ المختلفة أداة
تغيير واصلاح وبناء وتقدم .

وسندرس في هذا الفصل الفكر الاسلامي من حيث محتوياته ، وأساليبه ،
وغاياته لينتقل بعد هذا الى الحديث عن الطبيعة الانسانية في جوانبها المختلفة ،
وذلك تمهيداً للحديث عن الفكر التربوي الناجم عن هذا ، والذي سيختص به
الفصل التالي .

الدين ضرورة :

الدين ضرورة فردية واجتماعية ، ولا يمكن أن يحيا الانسان بغير دين ،
كما لا يمكن أن يعيش المجتمع بغير عشيده ، لأن الدين يعنى الخضوع والاذعان
لقوة أعظم وأعلى من قوة الانسان أو المجتمع ، حيث يجد فيها كل من الانسان
والمجتمع الأمن والراحة والاستقرار . قال تعالى « وله أسلم من في السموات
والارض طوعاً وكرها » ٠٠ آل عمران : ٨٣ ، وقال تعالى « وان من شيء الا
يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » ٠٠ الاسراء : ٤٤ ، وقال تعالى
« ولله يسجد من في السموات والارض طوعاً وكرها » ٠٠ الرعد : ١٥ ، فهذه
الآيات وغيرها تؤكد الخضوع والاذعان للخالق ، فالتبعية تسير وفق القوانين
التي قدرها الله تعالى ، ووفق الاحتمية التي ارادها المولى عز وجل ، والانسان
يسير وفق الامكانيات العقلية والبدنية التي زوده الله بها وراق تسخير المخلوقات
الأخرى له ، فهو في جانب منه يسلم أى يخضع كرها ، لأنه لا يستطيع ان
يجاوز هذه الامكانيات ، وأن يتعدى هذه القدرات . وهو في جانب منه يسلم

طوعا عنهما يؤمن بالله ، ويوقن أنه الخالق القادر . وذلك عن طريق النظر والتفكير والاستدلال أو عن طريق الوجدان والحدث والفطرة .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » (١) . يقول ابن الأثير في ذلك أن الفطر يعنى الابتداء والاختراع ، ومعنى الحديث أنه يولد على نوع من الجهلة والطبع المتهيب ، لقبول الدين ، فلو ترك لاستمر على لزومها ، ولم يفارقها إلى غيرها ، وإنما يعدل عنه لآمنة من آفات البشر والتقليد ، ثم تمثل بأولاد اليهود والنصارى في اتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم (٢) .

فالدین ضرورة وفق الفطرة التي فطر الله الناس عليها كما قال تعالى : « فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » . فالإنسان بفطرته ، وبما أوصعه الله فيه من غرائز وحاجات عضوية بحاجة للبحث والتنقيب والتساؤل ، حتى يحصل على الوسائل التي تشبع حاجاته وغرائزه . فهو بحاجة إلى إشباع حاجاته العضوية مثل الطعام والشراب ، وبخاجة إلى إشباع غرائزه الثلاث المختلفة غريزة الذرع والتدين وغريزة حب البقاء . والمعروف في علم النفس أن السلوك مبعثه الحاجة ، فالحاجة تعنى حدوث خلل في التوازن والاستقرار داخل كيان الإنسان ، مما يدفعه عن طريق السلوك إلى محاولة إعادة التوازن والاستقرار ، فالحاجات يظل قلقا نشطا حتى يشبع ، والمهدد بالخطر يظل قلقا باحث عن الأمن حتى يضمن الحياة (٣) . يقول « وليم جيمس » : إن الدين هو الحقيقة الأولى ، التي يحس الفرد نفسه مدفوعا إلى الاستجابة لها استجابة تفصل بالنهاية والحمد ، دون أن تذمر أو استهزاء (٤) .

-
- (١) مسلم ، صحيح مسلم ، الجزء ٨ ، الناهرة ، محمد علي صبيح ، ص ٢٢٠ .
 (٢) ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، ط ١ جزء ٢ ، القاهرة ، المكتبة الخيرية ، د ٥٠ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .
 (٣) سميح عاتق الزين ، الإسلام وثقافة الإنسان ، ط ٤ ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٣ م ، ص ٩ .
 (٤) عبد السلام عبد الميزان المجي ، تطور الشعور الديني عند الطفل والمراهق ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٥ م ، ص ١٧ .

فالإنسان بفطرته يبحث ، وينشط ، ويعمل ، وهو في بحثه وعمله يصطدم بقوى أعظم من قوته ، وتواجهه عوائق يعيا عن اجتيازها ، ولا يقوى على الغلبة عليها . ومن ثم يأخذ في التزلف اليها والتقرب لها . حدث هذا في كل العقائد البدائية ، فمن الشعوب من عبدت النار كالمجوس ، ومنها من عبدت الشمس والكواكب ، ومنها من عبدت النيل والشجر كالفرعنة ، ومنها من أقر بآله ولكنها توسطت اليه بالاصنام كالجاهليين .

فهذا يؤكد ان الانسان دينى بالطبع ، وان الدين ليس صفة مكتسبة ، وانما هو خاصة فطرية من خصائص الانسان ، بل يمكن القول بأنها ابرز الخصائص الانسانية ، حتى ان البعض قد عرف الانسان بأنه حيوان دينى .

وحقيقة فان الشرك بمظاهره المختلفة لا يعد من الدين الحق في شيء . ولكنه في جوهره يعد ديناً أو عقيدة انحرفت عن المسار السليم ، واتخذت سبلاً أخرى بعيدة ، حتى من لادين له ، له عقيدة ، فالماركسية المحدثه وان كانت لا تقر الدين ، ألا أنها تقر وتؤكد العقيدة الماركسية فهي لا تؤمن باله ، ولكنها تؤمن بالمادة والعلم . فهي تستبدل الها باله ، وعقيدة بعقيدة ، والانسان لا يمكن أن يسير في الحياة وهو جاهل بها ، الانسان بحاجة الى عقيدة تضيء له الطريق تجنبه الخوف من المجهول ، تروض له الحياة بتفسيرها له واستئناسها . حتى وان كانت هذه العقيدة خاطئة ، المهم أن يحيا بعقيدة تفسر له الوجود الذي يعيش فيه وتقف به على خالق هذا الوجود ، حتى يمكنه أن يتعامل مع الطبيعة ومع الانسان .

الانسان بحاجة الى عقيدة توجه خطاه ، وترشد سلوكه ، وتجنبه الهلاك والدمار ، وهو بحاجة الى عقيدة لأنه يفكر ، ولا يخبط على غير هدى ، فهو يستغل كل طاقاته من أجل الامن والاستقرار ، ومن أجل اشباع حاجاته ورغباته . وفكره هذا هو الذى يكشف له عن ميادين مجهولة ، ويوضح له ان هناك قوى خفية غيبية مجهولة ليستطيع محاربتها ، فيدعن لها أو يتوسل اليها بدافع حب البقاء ، ويمتدح التفكير .

وكما أن الدين ضرورة فردية فهو أيضاً ضرورة اجتماعية ، فالدين نظام

اجتماعى . وجد منذ أن وجد المجتمع البشرى ، وإذا كان الإنسان الفرد دينيا بالطبع ، فلا بد أن يكون المجتمع دينيا بالضرورة فالمجتمع هو الأفراد بآمالهم وأهدافهم ومصالحهم ، والإنسان بحاجة إلى الوحدة الدينية والتجانس الدينى . فإذا ما تحققت الوحدة الدينية ، تحققت المجتمع ، وتحقق وجوده . والدين كنظام اجتماعى له فكره وقيمته ، وعاداته ، وشعائره ، ومنهجه التربوى ، وله أهدافه وهو كنظام اجتماعى موجود فى كل المجتمعات قديمها وحديثها ، وله دوره فى بناء المجتمع وحركته وتغييره وهو يتفاعل مع النظم الاجتماعية الأخرى ، بل ويهيمن عليها ، ويصبغها بصبغته ، فكثيرا ما يجد فيه المجتمع تفسيراً لقضايا السياسية والاقتصادية والأسرية والثقافية والحربية والدستورية ، فنظام الأسرة مثلاً يخضع فى تقاليده وعاداته للدين ، والاقتصاد غالباً ما يتأثر بالدين . ولقد وضع أثر الدين فى حياة المجتمع فى كثير من الأزمنة ، ففى زمن الانقطاع مثلاً ، لعب الدين دوره فى حياة الناس الاقتصادية ، فاستأثرت فئة قليلة بالغنى ووجدت لها سندا من الدين ، وعانت الغالبية من الفقر والجوع آلمة فى حياة سعيدة وراء الحياة الدنيا ، وخشى الملوك والباطرة سلطان رجال الدين . بل أن الحروب الصليبية ماكانت الا بتأثير رجال الدين ، فقد حاول بعض قادة هذه الحروب الهرب من نفوذ الكنيسة ، والبحث عن مناطق نفوذ فى الشرق .

فالدين يمثل أحد النظم الاجتماعية باعتباره يحمل نظرة لتكون والوجود والإنسان ، كما يمثل مجموعة من القيم الخلقية والاجتماعية والاقتصادية ولتأثير الدين فى حياة المجتمع فإن بعض القوى السياسية تحاول التمسك به كأداة من أدوات الحفاظ على الوضع القائم كما أن بعض هذه القوى تحاول الأخذ به كأسلوب ثوره على الوضع القائم ، وأداة تغيير اجتماعى شامل . وتاريخنا القومى خير شاهد على ذلك ، فقد عجز الاستعمار بكل جبروته وطغيانه أن يقهر الإرادة الوطنية وأن يقتل روح الثورة فى الشعب . وما ذاك الا بفضل الروح الدينية القوية العاتية . وإن سلطان الدين وسيطرته على حيوات شعبنا كشاهد آخر على هذا فقيمنا الاجتماعية ، وسياستنا الاقتصادية ، وأخلاقنا ومثلنا ، وعاداتنا وتقاليدينا لتعكس مدى قوة الروح الدينية ، ولتؤكد مدى أثر الدين فى حياة المجتمع . ولأهمية الدين فى حياة المجتمع فقد عكفت بعض الدراسات على دراسة أثر الدين كنظام اجتماعى ، وظهر مايسمى بعلم الاجتماع الدينى ،

ومن هذه الدراسات تلك الدراسة التي قام بها « روجيه باستيد » مبادئ علم الاجتماع الدينى (٥) .

فالعقيدة فى الله ليست خرافة ولا وهم ، وإنما هى حقيقة من حقائق الكون ، وظاهرة بينه من ظواهر الوجود ، ومازال القرآن يؤكدها ، ويرسئ قواعدها ، ويربى على أساسها ، حتى أصبحت فى حس المؤمنين واقعا محسوسا ، تكاد تلمسها الأيدى ، وتراها العيون . وهى الهدف الأول لكل رسالة والدعوة التى دعا إليها جميع الرسل والأنبياء « وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون » الانبياء « ٢٥ (٦) .

الاسلام دين عام وشامل :

وإذا كان الدين ضرورة فطرية ، فما دور الاسلام هنا فى تصحيح العقيدة ؟ وكيف وصل بها الى حد الكمال والشمول ؟

من رحمة الله بالانسان انه لم يكله لنفسه ولم يدعه لذاته ، فالله تعالى يعلم أن هذا الانسان مخلوق ضعيف ، وكائن متناقض ، وقد تدفعه نزواته الى المعصية ، وتنكبه جادة الهدى ، ولذا أرسل سبحانه الرسل مبشرين ومنذرين ، يدعون للخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، يدعون باله واحد منزله عن التشبه والنظير . ولم يكن ليداسب الله أمة قبل أن يرسل اليها رسولا قال تعالى « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » الاسراء : ١٥ .

والاديان السماوية كلها رغم تعددها تقوم على أركان ثلاثة جمعها قول الله تعالى « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنجارى والصابئين ، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » البقرة : ٦٢ . فالأركان الأساسية الثلاثة التى تقوم عليها أى عقيدة الهية هى الإيمان بالله والإيمان بالجزاء ، والعمل الصالح (٧) .

(٥) أنظر : روجيه باستيد (ترجمة محمود قاسم) ، مبادئ علم الاجتماع الدينى ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥١ م .

(٦) محمد شديد ، منهج القرآن فى التربية ، القاهرة ، مكتبة الآداب بالجماهير . د . ت . ، ص ٨٦ .

(٧) محمد رشيد رضا ، الروحى الحمدي ، ط ٦ ، القاهرة ، مطبعة النهضة مصر ، ١٩٥٦ م ، ص ١٤٥ .

والاديان السماوية كلها ارتكزت على هذه الاسس ، فهي تدعو لله ، وتدفع للعمل ، وتحث عليه ، لأن الناس سوف يبعثون ، ويحاسبون على ما قدموا من عمل ، ان خيرا فخير ، او شرا فشر . وهنا يلوح تساؤل : لماذا فضل الاسلام كل الاديان السماوية السابقة عليه ؟ ولماذا نسخها ؟

يقول الله تعالى « اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً » المائدة : ٣ ، ويقول تعالى « ان الدين عند الله الاسلام » آل عمران : ١٩ . ويقول المولى « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فقلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » آل عمران : ٨٥ . ويقول تعالى « ماكان محمداً اباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الاحزاب : ٤٠ .

فهذه الآيات تقرر أن الاسلام هو الدين الكامل الشامل ، وأن الرسول هو خاتم الانبياء . والقرآن حين يقرر هذا فهو لايعنى رفضه للاديان السابقة ، أو انكاره لها ، فمن عناصر الايمان ، الايمان بكتبه ورسله . الاسلام يؤمن بالاديان السابقة ، يؤمن بها لأنها عالجت فترات معينة ، ودعت الناس الى عبادة الله في مراحل زمنية خاصة . والمعروف ان كل نبي كان يرسل الى قومه خاصة ، أما الرسول عليه السلام فقد أرسل الى الناس كافة ، قال تعالى « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً » : سبأ ٢٨ ومنهج الله عز وجل في هداية البشرية بهذا الشكل المتدرج الذى يبدأ من الجزء لينتهى الى الكل . أو من الخاص ليصل الى العام هو منهج طبيعى يلائم تطور الحياة وسنة الترقى ، ذلك أن البشرية تبدو كالكائن الحى يبدأ بمرحلة الطفولة ، ويصل الى مرحلة النضج والاكتمال . والبشرية قد قطعت شوطاً طويلاً في الجهل والبدائية ، وكان طبيعياً تماماً أن تعامل كالطفل فيراعى في التعامل معها البساطة في العقيدة ، والوضوح في الدعوة ، والقلة في التكاليف والميل للحس (٨) . ولذا كانت معجزات الأنبياء قبل الرسول معجزات حسية تخاطب الحواس وتثير الدهشة . ولكنها لاتكفل الاقتناع أو الايمان كان طبيعياً أن تعامل انبشيرية هكذا قبل ان ترقى سلام النضج والكمال ، وقبل أن تصل الى درجة من التقعد والتأنيب كما نلاحظ

(٨) تشارلى آدم (ترجمة عباس محمود) ، الاسلام والتجديد في مصر ، القاهرة ، لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية ، ١٩٣٥ م ، ص ١٤٨ .

اليوم . ولعل هذا تعوزه الدراسات الأنثولوجية التي تتجه لدراسة الحياة البدائية كما تعيشها بعض القبائل ، وحتى يمكنها أن تفسر حركة التطور ، وتترصد مساراته .

من هنا فإن دور الأديان السابقة على الإسلام كان دورا مرحليا ، وليس دورا مستمرا خالدا . وكما أن الطفل لا يمكن أن يظل طفلا ، فكذا البشرية لا يمكن لها أن تبقى في حالة البدائية ، وكان لابد لها أن تتجاوزها إلى مرحلة النضج والرشد ومن ثم لم يكن بمقدور الأديان السماوية السابقة أن تستوعب هذه المرحلة . وأن تتلاءم معها ببساطة دعوتها ، وأسلوبها الحسى ، وضالّة تكليفها . وكان لابد من دين مرّن شامل يستوعب التطور ويساير التقدم ، بهدف تأصيله وترشيده . وكان هذا الدين هو الإسلام « ذلك الدين القيم » (٩) .

لقد استوعب الإسلام كل مافى الأديان السابقة من مبادئ وزاد عليها ، فعندما ينسخ الإسلام هذه الأديان فانما ينسخها لأنها لم تعد صالحة للتطور ، ولم تعد قادرة على التوجيه والارشاد . أنه يقربها في حدود دورها المحدد . ولكنه لا يؤمن بها كأديان مطلقة خالدة ومن العيب أن تستمر الأديان السابقة وتبقى بجانب الإسلام ، وقد حوّاها جميعا . كما أنه من العيب أن نقوم بتعليم طالب القراءة والكتابة وهو مثلا في المرحلة الجامعية .

الإسلام هو دين الشمول والاحاطة ، دين الفكر والتعقل ، لقد أيد الله رسوله بمعجزة القرآن وجعلها الدليل الواضح على رسالته ، ولم يكن القرآن الكريم معجزة حسية تثير الحواس وتبعث الدهشة لفترات محدودة . ولكنه كان معجزة فكرية أدبية غبية ، معجزة تخاطب العقل لا الحاسة تدعو للتفكير وتنفر من الجمود والتقليد الأعمى والتوارث الضال . ولقد حاولت قريش أن تعود لأسلوب الحواس فطالبت الرسول بمعجزات حسية ، قال تعالى « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله

(٩) الامام محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ط ١٥ ، القاهرة ، دار المنار ، ١٣٧٢ هـ ، ص ١٦٦ - ١٦٩ .

والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن
لرقيق حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه » • الاسراء : ٩٠ - ٩٣ •

الاسلام دين يسر وسماحة :

وتدحارب القرآن الجُمود والتقليد ، ونهى على الكفار تمليدهم فقال تعالى :
« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو
كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » فالتقليد أمة الجهل والضلالة • والفكر
سبيل الايمان واليقين • لقد تصور المشركون أن يكون الرسول مكا ، لا أن
يكون بشرا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » وقالوا : لهذا الرسول يأكل الطعام
ويمشي في الأسواق » •

الاسلام كان يعنى العودة الى منطق الفطرة السليم ، منطق الايمان والخشوع
له • « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة » • البقرة : ١٢٨ وكان يعنى تصحيح
العقيدة ، والثورة على جهالات الوثنية والشرك التي انحرفت عن جوهر الدين
وحقيقة العقيدة • كان يعنى الشمول لأنه قدر الفطرة ، ووضع في الاعتبارات
امكانات الانسان وقدراته ، وما يمكن أن تتجزه هذه الامكانات ، « لا يكلف الله
نفسا الا وسعها » وقال الرسول عليه السلام « ان الدين يسر ولن يشاد الدين
أحد الا غلبة » (١٠) الاسلام يقدر امكانات الانسان ويعلم أنها تستطيع أن تفعل
الكثير ، ولكنه في نفس الوقت قدر حدود هذه الامكانات التي لا يمكن أن تتجاوزها ،
ولعل هذا يتضح من قوله تعالى « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ، ان
يكن منكم عشرون صابرون يغلِبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلِبوا ألفا من
الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون • الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ،
فان يكن منكم مائة صابرة يغلِبوا مائتين • وان يكن منكم ألف يغلِبوا ألفين
بإذن الله ، والله مع الصابرين » • الأنفال : ٦٥ ، ٦٦ • فالقوة البشرية المؤمنة
قادرة على مواجهة الكثرة المشركة ، الواحد المؤمن يستطيع أن يواجه عشرة من
المشركين ولكن هذه القوة قد يعتربها الضعف حينئذ يكون التخفيف فالواحد
يواجه اثنين •

(١٠) البخارى ، صحيح البخارى ، ج ١ ، القاهرة ، دار الشعب ، ص ١٦ •

وينتصح بسر الاسلام وتقديره للطاقة البشرية من خلال ممارسة أركان الدين نفسها . ففي الصلاة أجاز التيمم عند الضرورة ، وفي الصوم أباح الإفطار مع العذر ، وفي الزكاة أسقطها عن غير القادر ، وكذا في الحج ، فحمله وكلف به من يستطيع . فعدم المغالاة والتطرف واتخاذ الموقف الوسط هو سبب من أسباب شمول الاسلام وعموميته قال تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » . البقرة : ١٤٣ . والوسط هنا لايعنى التوسط بين رذيلتين ، كما عرف أرسطو الفضيلة عندما قال أنها وسط بين رذيلتين . وإنما الوسط يعنى الرؤية المتكاملة المتوازنة للإنسان .

والاسلام شامل وعام لأنه لايقر التفرقة بين الناس على أساس من اللون أو الجنس . وإنما يؤكد التآخي والمساواة قال تعالى « ياأيها الناس أنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . الحجرات : ١٣ . وقد قال الرسول الكريم « الناس سواسية كأسنان المشط » . ويرى أن أباذر الغفاري رضى الله عنه غير غلامه بأمه فقال له الرسول عليه السلام « ياأباذر أعيرته بأمه ، أنك امرؤ فيك جاهلية ، اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكفوهم ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم » (١١) . ويعرف الاسلام صحابين أمثال : بلال ، وصهب ، وسلمان الفارسي وغيرهم . مما يؤكد المساواة والتآخي في الدين .

والاسلام دين عام وشامل وخالد لأنه لم يعزل الأرض عن السماء ، ولم يقل ماله لله وما القيصر لقيصر ، الاسلام دين ودنيا . تشريع من السماء موجه لعمل الأرض ، التحام وتزواج بين الايمان والعمل . نظام اجتماعي متكامل الجوانب متوازن الأبعاد . ولو أنه كان مجرد طقوس تؤدى وشعائر تزاوّل لاندثر هتلم ، مالدثر غيره ، فالطقوس متغيرة ، والشعائر متبدلة خاصة اذا افتتدت الاقتاع واليقين ، واصطدمت بأحداث العصر ومنطقه . الاسلام ليس غيبات مبهمه ، ولكنه مبادئ واضحة ، ويقين مطلق يتجسد عملا وسلوكا .

ولأنه عام وشامل فهو لايستند في عموميته الى القهر والقمع كما يدعى

انبعض من أن الاسلام انتشر بحد السيف ، قال تعالى « لا اكراه في الدين » .
البقرة : ٢٥٦ . وقال تعالى « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم
ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله
فان تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون » آل عمران : ٦٤ ، هو لا يقاتل الا الشرك
فقط ، ولكنه لا يقاتل الأديان السماوية لانها تدعو للتوحيد .

فعمومية الاسلام وشموليته تستمد من حرية الانسان نفسه ومن تفكيره ،
لا من قمعه وقهره . واذا كان يحارب المرتد فذاك ليمنع الفوضى في العقيدة ، واذا
كان يحارب المشرك فذاك لأنه يهدف الى تصحيح العقيدة . فالعقيدة جوهرية
ووجوده : فساد العقيدة يعنى فساد المجتمع ، وفساد الرجزد ، وعدم تحقيق
الخلافة في الأرض .

ومن هذا يتضح أن الاسلام دين عام وشامل يخاطب البشرية جمعاء ، وهو
يرتكز في شموله على مخاطبة الفكر الانساني ، وتقديره للطاقة الانسانية في قوتها
وضعفها ، ويسره وسماحته وتأكيد المساواة بين الناس ، وصلاحيته لأن يكون
تشريعا أى عقيدة وعملا ، ونظاما اجتماعيا متكاملًا يحتوى كل تطورات الحياة
ومفاهيم العصر . وعدم قيامه على القهر والارهاب .

وبهذه الأسس يمثل الاسلام ذروة انضج الدينى للأديان السماوية السابقة
كلها .

محتوى الاسلام :

تجسدت عمومية الاسلام وشموليته في مبادئه ونظمه التى احتوى عليها ،
وكما سبق القول فان الاسلام لم يكن ليعنى أبدا مجرد طقوس أو شعائر تنزوى
بعيدا عن معتزك الحياة ، يقول الله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل
المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليو الآخر والملائكة والكتباب
والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل
والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ،
والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم
المثقون » البقرة : ١٧٧ .

الاسلام يعنى جانبين الايمان والعمل ، وقد يطلق الاسلام أحيانا ويراد به العمل فقط في مقابل الايمان ، قال تعالى « قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم » . ؟

والاسلام لايعزل الايمان عن العمل ، بل الايمان أحيانا هو العمل يقول الرسول حين سئل : اى العمل أفضل ؟ فقال : ايمان بالله ورسوله (١٢) .

وفي القرآن الكريم يأتي الايمان كثيرا متقربا بالعمل قال تعالى « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جذات الفردوس نزلا » الكهف : ١٠٧ ، وقال تعالى « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجرى من تحتهم الانهار في جنات النعيم » يونس : ٩ . فهما صنوان متلازمان .

فالايان مالم يدعمه العمل ، والارادة والنية مالم يؤكدعها السلوك . تكون عبثا ، وعندما يقال انما الأعمال بالنيات فذاك لتأكيد العلاقة بين الايمان والعمل قال تعالى « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » . وقال الرسول الكريم « من رأى منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » فالعمل دليل الايمان . وكما سبق القول فان القطرة البشرية تدفع للبحث والسلوك . والكائن الحى عموما لايقدر له البقاء بدون السعى والبحث والعمل . يقول الرسول عليه السلام فى حديث معناه ليس الاسلام بالتمنى ولكن الاسلام ماوقر فى القلب ، وصدقه العمل .

وكما أراد الاسلام تصحيح العقيدة ، أراد أيضا تصحيح السلوك ، وتوجيه العمل ، ففساد العقيدة يعنى فساد السلوك ، وتغير النفس تستتبع حتما تغير السلوك « ان الله لا يغير مايقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » الرعد : ١١ .

والمقصود بالعمل فى الاسلام كل المظاهر السلوكية للانسان أى الجانب التشريعى فى الاسلام ويمكن تناول هذين الجانبين بشئ من التوضيح فيما يلى :

أولا : الايمان وهو يعنى التصديق القلبي ويشمل الايمان بالله وملائكه وكتبه ورسله واليوم الآخر . والايمان بالله يعنى تنزيهه عن النظير « قل هو

(١٢) صحيح البخارى ، الجزء الاول ، القاهرة ، كتاب الشعب ، ص ١٣ .

الله أحد » وتوحيده والايان بالله يستتبع عدم العبودية لغير الله . وفي هذا تجسيد لحرية الانسان وتحرير له من كل عوامل القلق والخوف والتوتر ، فعبادة غير الله ذلة ومهانة للانسان ، والخضوع لله وحده عزة وكرامة وشجاعة ، الايمان بالله يعنى اتباع أوامره واجتناب نواهيته .

والايان بالملائكة لانهم رسل الله ووسائل تنفيذ ، فهم وسائط الوحي « وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » الشورى : ٥١ . وقال تعالى « اذ يوحى ربك الى الملائكة انى معكم فتبثوا الذين آمنوا سالتنى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » الانفال : ١٢ .

ولقد جادل المشركون كثيرا فى أمر الملائكة وجعلوهم اناث الرحمن « ويجعلون لله البنات سبحانه . . » النحل : ٥٧ فالايان بالملائكة يقتضية الايمان بالله . ثم الايمان بالكتب السماوية السابقة كانتوراة والانجيل والزبور قبل التحريف ، والايان بالرسل السابقين . وكما سبق القول فان الاسلام يقر بالأديان السابقة ويؤمن بها لأن مصدرها واحد وهو الله تعالى ، ذلك أنها أدت رسالتها بالصورة التى تتلاءم مع طبيعة عصر ما قبل الاسلام .

والايان باليوم الآخر يمثل الوازع الداخلى الضابط لسلوك الانسان ، ويمكن القول بأنه الضمير الداخلى الذى يحكم سلوك الانسان ، وهو أحد الضابطين الاجتماعيين فالمعروف فى علم الاجتماع أن ضابطين النظام الاجتماعى اثنان احدهما داخلى يتمثل فى سلطة الضمير ، والآخر خارجى يتمثل فى الردع والعقاب . فايان الانسان باليوم الآخر يعنى محاسبته لنفسه ، ومراقبته لكل أمور حياته قال تعالى فى مدح المؤمنين « ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب » الرعد : ٢١ فالايان باليوم الآخر هو مصدر الالتزام الخلقى . ولقد حاول بعض الفلاسفة أن يرجع الالتزام الخلقى الى المجتمع ، والالهام الذى يدفع بعض النفوس الى اعلاء القيم الانسانية ، وهذا ماذهب اليه « برجسون » (١٣) .

(١٣) محمد السيد بدوى ، الاخلاق بين الفلسفة والاجتماع ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٧ م ، ص ص ٦٦ - ٧١ .

ولقد كثرت الآيات القرآنية التي تعمل على ترسيخ الخوف من الله والخوف من اليوم الآخر في القلوب قال تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم » ٠ الحج : ١ ٠ وقال تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ان وعد الله حق ٠٠ ، لقمان : ٣٣ ٠

والقرآن الكريم حينما رسم المشاهد المروعة للقيامة مثل « اذا زلزلت الأرض زلزلها ٠٠٠ » ومثل « ٠٠ وما أدراك ما سقر لاتبقى ولا تذّر ، لواءة للبشر ، ومثل « يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ؟ » ق : ٣٠ ومثل : وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة التي تطلع على الأخنثة ، انها عليهم مؤصدة . في عمد ممددة » الهزلة : ٤ - ٩ حين يرسم القرآن هذه المشاهد فهذا ليهز النفس الانسانية ، وليبعدنا الى منخلق الفطرة والتدبير . فالعقل الانساني يسلم منطقيا باليوم الآخر ، اذ لا يعقل أن يتساوى المطيع مع المخطيء والظالم مع المظلوم في النهاية ، وأن ينتهي الانسان بالموت فقط دون حساب .

ولأن الايمان هو مصدر السلوك ، ومبعث العمل ، وشرط التوفيق والنجاح في أداء الرسالة فقد حرص القرآن الكريم على أن يستخدم شتى الطرق والأساليب من أجل أن يعود بالفطرة الى جوهرها الحقيقي ، وهو الايمان الضروري ، فالفطرة توجب الايمان ، والعقيدة ضرورة لها كما سبق القول . وهذا ما أكدته الدراسات الانثروبولوجية ، وما أكدته التحليل النفسي فذكر « كارل يونج » ان النفس تتكون من الوعي واللاوعي ، والآخر يتضح في الامراض العقلية والأحلام . ولا يخضع لسلطان النظام الاجتماعي . أما الدين فهو عبارة عن شعور الحب والاحترام والخشوع وهو القوة التي تسيطر على عناصر الانا لوعي وتنظم سلوك الانسان (١٤)

فالانسان ديني بالفطرة . وهو بحاجة الى ما ينقى له العقيدة ، لذا سلك القرآن سبيل التهديد مرة والترغيب في النعيم مرة أخرى . ودعا لاستخدام العقل مرة ، والاعتبار بحال الأمم أخرى ، واستخدام أسلوب التمثيل والقصة مرة أخرى .

(١٤) محمد فاضل الجمالي ، تربية الانسان الجديد (مرجع سابق) ص

وشغلت قضية الايمان السور المكية كلها ، واتسمت هذه السور بالقصر :
وعنف الجرس الصوتي ، والتهديد والوعيد مثل : والعصر ان الانسان لفي
خسر . . . انا اعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر . . ومثل يا ايها الدثر ، قم
فأنذر وربك فكبر . . .

فالاسلام على أولا بيقين العقيدة ، وترسيخ الايمان ، حتى اذا فرغ من ذلك
جاء جانب العمل .

ثانيا : العمل : وهو التجسيد الحي للايمان ، فلو أن الحياة وقفت عند
حدود الذوايا ، والتصدقين الظلي ، لما قام لها أثر ، ولا صلح لها حال . يقول
تعالى « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » آل عمران :
٣١ ويقول تعالى « ارحسب الانسان ان يترك سدى » القيامة : ٣٦ . فالحياة
صرع وكناج وعمل ، يقول تعالى : « والذين جاءوا فينا لنهدينهم سبيلا وان
الله لمع الحسنيين » .

وعناية الاسلام بالجانب العملي منه أو التشريعي يؤكد موقفه من
المنافقين فلم يكن المنافقون مؤمنين حقيقة ، ولم يكن الايمان قد رسخ في نفوسهم .
ومع هذا فلم يعتن بهم الاسلام ولم يهدر دماءهم ويستبيح أموالهم ، فهم يصلون ،
ويصومون ، ويذكرون ، ويحجون ، أى يزاولون الجانب العطي من الدين . وعناية
الاسلام بالعمل لايبنى اهماله للايمان فالاسلام الحقيقي الكامل والمسلم الحق
هو من جمع بين الايمان والعمل .

والعمل يعنى السلوك بكل صورة وضروية ، ويمكن تحديد مجالات السلوك
في الاتى : سلوك الانسان مع الله ، وسلوكه مع الآخرين . والمجال الأول يقصد
به العبادات والمجال الثانى يقصد به المعاملات .

العبادات وهى تشمل الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، وسلوك
الانسان هنا هو سلوك مع الله أى تعامل مع الله . والتعامل مع الله يهدف الى
تكوين الشخصية المؤمنة القوية الحرة ذات الضمير الحي والقلب اليقظ . فالصلاة
هى الحبل الوثيق الذى يربط الانسان بربه . وهى قمة الخشوع والخنوع لله
ولذا كانت قرعة عين الرسول . كما يقول الرسول الكريم « جعلت قرعة عينى فى

الصلاة . الصلاة رحلات الهية ولقاء روى متجدد كل يوم يخلص فيها المؤمن من دنياه ، ويتجه بكل كيانه الى الخالق طالبا منه انعون والهداية ، متمثلا فيها عظمة الخالق وقدرته . يقول الرسول عليه السلام : « أرايتم لو أن نهرا بدار أحلكم فاغتسل فيه خمس مرات في اليوم والليلة ، هل يبقى من دونه شيء فقال الحاضرون : لا ، فقال الرسول هكذا الصلاة » . الصلاة رياضة بدنية وروحية وأسلوب نظافة دقيق وعى صحة ووقاية وعلاج (١٥) . ولأعمقيتها جاءت تالية دائما للأيمان « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » . البقرة : ٣ . وعى تنأى في القرآن مقرونة بالاقامة ، فلم يقل تعالى « يصلون » أو « صلوا » وإنما بسبق لفظ الصلاة لفظ الإقامة ، فالمطلوب فيها أن تؤدي كاملة مستوفية لشروطها وأركانها . وهي ليست مجرد حركات وسكنات ، ولكنها نبض حي ، وبقظة كاملة ، وعى بهبة الخالق وإقرار بوجوده ، واقترابا منه ، واستغراقا فيه ، ولقد بين الله تعالى الهدف منها بقوله « أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » العنكبوت : ٤٥ .

وترك الصلاة يعنى الاستسلام لتدبير الرغبة والشهوات يقول تعالى « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » مريم : ٥٩ .

ومع أنها صلة شخصية بين الانسان والخالق فهي أيضا لها مدلولها الاجتماعي ، فقد حبز الاسلام صلاة الجماعة ، وأوجبها في صلاة الجمعة ، فصلاة الجماعة تمثل تكاتف الأمة وتعاونها وتساويها وتحاببها في الله ، أى هي صورة للأخوة الإسلامية ، وتجسيد لروح الألفة والمحبة بين أبناء المسلمين .

ومن العبادات الزكاة ، والزكاة حق لله تعالى قال تعالى « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » الذاريات : ١٩ . وحين يجعلها الله تعالى ركنا من أركان الدين فذاك لأنها تجهر بالخل ، وتحدث التوازن الذى قد يفتقد مع سوء توزيع الثروة ، ومع التفاوت في المال . والمال كما هو معروف يمثل الدورة الدموية في شرايين المجتمع ، وإذا لم يؤد دورة كاملا فسد المجتمع وتعرضت بعض شرايينه

(١٥) محمد زكي سويدان ، الصلاة صحة ، ووقاية ، وعلاج ، القاهرة ، كتاب الهلال ، عدد ٢٨٥٥ ، ١٩٧٤ م ، ص ١٩ وما بعدها .

للضمور والشلل ، وما كان الله تعالى ليبرضى أن يكون المجتمع الإسلامى مجتمعا ضعيفا متعطلا ، أنه يريد له القوة والغلبة • وقد هدد الله تعالى وتوعد الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله • وحث على الصدقة ورغب فيها ، « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » البقرة : ٢٦١ •

فألزكاة رآب للصدع الاجتماعى ، ومعالجة ذكية حكيمة لما يحدث فيه من خلل ، وترشيد سليم لسياسة المال الذى جعل الله الإنسان فيه خليفة ، يقول تعالى « وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » • ومع أن الزكاة ذات طابع اجتماعى إلا أنها أيضا ذات طابع تعبدى ، وعندما يدرجها الله تعالى ضمن العبادات فذاك تأكيدا لدورها الاجتماعى ، وتعزيزا لأهميتها فى صيانة المجتمع والحفاظ عليه •

ومن العبادات الصوم وهو الذى يقول فيه الحديث القدسى كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا اجزى به «ويقول فيه أيضا» لخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك « والصوم كما يقول الرسول » « جنة » أى درع ووقاية ، يعلم النفس الصبر والصمود ازاء قوة الرغبة ونشوة اللذة • وحين يضعه الله تعالى بين أركان الإسلام فذاك لأنه يمثل الخضوع التام لإرادة الخالق ، والامتثال لأمره ، يمثل قوة المؤمن وقهره لهوى الشيطان ، يمثل ذروة التحرر من عبودية الجسد ، وهى أخس أنواع العبودية • يمثل التعاطف مع الفقير ، يمثل الشعور الإنسانى النبيل ، ولذا لم يكن الصوم مجرد امتناع عن الأكل والشراب وإنما هو امتناع عن كل الآثام والخطايا • يقول الرسول الكريم « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يترك طعامه وشرابه » (١٦) •

فالصوم عبادة روحية ، ورياضة نفسية ، تعمل على خلاص المؤمن من أغلال الجسد وسطآن الرغبة • وتوفر للإنسان المؤمن عناصر القوة والحرية والغلبة ومن العبادات الحج • يقول تعالى « الحج أشهر معلومات فمن فرضه والتعاطف مع أخوانه من المسلمين •

ومن العبادات الحج . يقول تعالى « الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج » البقرة : ١٩٧ . ويقول تعالى « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » . وإذا كان المؤمن بانتهاء رمضان يعود من رحلته الروحية الى الدنيا فانه بدخول شوال يمتلئ قلبه بالشعور باستئناف رحلة أخرى يشارك الروح فيها البدن ويهرع إليها القادر عليها دحيماء السفر ، وعناء الطريق ، ملتصقا العون والرضوان (١٧) . وعبادة الحج متعددة الاهداف والغايات فهي فردية تعمل على صفاء القلب ونقاء النفس عندما نذكر الانسان بالحشر ويوم الحساب فالحاج أشعث أغبر لا يلبس الا المحيط أو ما يشبه أكتاف الموتى ، الحج هجرة روحية الى الله تؤكد الخضوع لله والخوف منه ، وهو أيضا يحقق للفرد المنافع المادية وغير المادية . واجتماعيا لان الحج مؤتمر اسلامي عالمي يلتقى فيه المسلمون من كل حذب وصوب على الحب والتعاون والتآزر وتجديد العزم على اعلاء شأن الاسلام ورفعته كلمته .

والملاحظ ان هذه العبادات كلها مع أنها سلوك خاص مع الله ، ومع أنها علاقة فردية بالله ، الا أنها تعود الى المجتمع بناء موجبة ، فالجانب الاجتماعي لا يغفل أبدا في العبادات . فاعداد المؤمن وتربيته من خلال العبادات ، ذلك ليعود الى ساحة العمل الاجتماعية الاخرى . وهنا نلاحظ الدينامية السريعة بين العبادات وبين المعاملات ونلاحظ التفاعل بين بناء الفرد وبناء المجتمع ، لبصقل المؤمن أولا بصورة علمية من خلال العبادات ليكون أهلا للمساهمة والمشاركة في نشاط المجتمع .

كذلك نلاحظ أيضا التدرج في منهج العبادة ، فهناك العبادة اليومية المتجددة التي لا يمكن الاستغناء عنها لأنها أم العبادات ، وهي الصلاة . وهناك العبادة الشهرية التي يمثلها صوم رمضان ، وهناك العبادة العمرية التي على مستوى عمر الانسان وهي الحج .

(١٧) محمود شلتوت ، الاسلام عقيدة وشريعة ، ط ٦ ، بيروت ، دار الشروق ١٩٧٢ م ، ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

وقد تلتقى هذه العبادات في وقت ما فتكون وسائل متعددة للتهذيب ،
يوصقل النفس من أجل الاعداد للحياة وللمجتمع .

هذا هو مجال السلوك الفردي أو مجال التعامل مع الخالق .

اما مجال السلوك الثانى فهو مجال المعاملات ، وهو مجال متعدد الجوانب
واسع الابعاد ، اذ هو يشمل حياة الانسان كلها ، يشمل نظام الاسرة والمواثيق ،
ويشمل أمور البيع والشراء والمعاملات المالية ، ويشمل الحدود والعقوبات
ويشمل بناء الدولة وأخيرا يشمل العلاقات الدولية .

واذا كان الاسلام قد عنى بالفرد ، وعمل على اعداده بالعبادات ، فذلك
لأنه يكون مع الآخرين نسيجا اجتماعيا متشابكا قويا . وحتى يتحقق هذا
كان لابد من ضبط السلوك ، ورصد النشاط وتوجيهه بما يتفق مع صالح
المجتمع وتقدمه . وكان أن اهتم الاسلام بالخلية الأولى في بناء المجتمع وهى
الأسرة ، وقد حرص الاسلام على أن يوفر كل الضمانات الكفيلة بتأسيس
أسرة مسلمة قوية . وتبدأ هذه الضمانات منذ الخطوات الأولى في تكوين
الأسرة . وهو الزواج ، لقد حرم الاسلام الزنا ونفر منه لأنه سبيل التدهور
والضياع ، وشرع الزواج وجعله ضابطا لغريزة الجنس ومهذبا لها . وحتى
يحقق الزواج الهدف منه ، وهو تأسيس الأسرة ، أباح التعرف بين الزوج
والزوجة قبل الزواج ، ولكن في الحدود المشروعة ، ويؤيد هذا قول الرسول
الكريم للمغيرة بن شعبه « انظر اليها فلعنه أخرى أن يؤدم بينكما » . كما دعا
الاسلام الى التحرى والتروى في اختيار الزوجة يقول الرسول « تنكح المرأة
لأربع لمالها ، ولجمالها ، ولحسبها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك »
ويقول في حديث آخر « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » . وشرع الاسلام
الكفأة في الزواج ضمانا لحسن العشرة والألفة فينبغى أن يكون هناك تناسب
بين الزوجين في الوصف الاجتماعى والاقتصادى . ورضى الاسلام الميراث ولم
يقيد الميراث ، يقول تعالى « وآتيتكم اعداء من قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا »
النساء : ٢٠ . وذلك لأكرههما للمرأة واحتراما لها .

والاسلام يتوقع ان يحدث خلاف في محيط الأسرة نأشأ الى اساليب العلاج ، يقول تعالى : « واللائي تخافون نشوزهن فعظوهن ، واضربوهن في المضاجع . واضربوهن » . اما اذا ما اشتد الخلاف فان الاسلام يشير بالتوسط بين الطرفين يقول تعالى « فابعثوا حكما من أهله ، وحكما من أهلها » النساء : ٣٥ . حتى اذا ما تعذرت الحياة بين الزوجين هنا أباح الاسلام الطلاق ، وجعله أبغض الحلال الى الله . يقول تعالى « وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته » النساء : ١٣٠ .

ولأن الانسان لا يستطيع أن يعيش بمفرده ، ولا بد أن يتعامل مع الآخرين ، حتى يضمن البقاء . من هنا عرض الاسلام لوسائل الكسب المشروعة فأباح البيع والشراء ، وحرم الربا والغش والجشع والاحتكار . ووضع الضمانات الكفيلة بحماية المال ، ودعا الى الأخذ بالاسلوب المعتدل في الانفاق « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط » . ودعا الى التسامح في المعاملة ، يقول الرسول الكريم « رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى » ودعا الى تحرى الامانة في المعاملة ، وتوثيق العقود . يقول تعالى « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل » البقرة : ٢٨٢ . ووضع الاسلام نظاما للمواريث ثابتا ، وحدد لكل وارث نصيبه خشية الفرقة والاختلاف . ولأن الناس يختلفون في السلوك ، فقد كان لابد من سن القربيات والحدود التي تكفل الحفاظ على حياة المجتمع ، وتوفير له استقراره وثباته . والحدود هي أحد الضابطين الاجتماعيين المشار اليهما فيما سبق فمفع أن الاسلام يقر الحرية في السلوك الا أنه لا يسمح بالفوضى . فشرع عقوبة السرقة ، ووضع حد الزنا والقذف . والشرب . كما حدد عقوبة المرتد ، وقاطع الطريق . وفرض القصاص فمن قتل يقتل ، العين بالعين ، والسن بالسن .

واذا كانت هناك بعض التصحيحات تعارض في اقامة الحدود فذاك مبعثه الجهل بحكمة الخالق من اقامة هذه الحدود ، أو التجاهل باسم المدنية والعصرية .

وإذا كان الاسلام قد عالج هذه المعاملات الداخلية بين أفراد المجتمع .
فانه أيضا قد عالج ما يجب ان يتبع في تأسيس الدولة . فأكد الاسلام على
المساواة بين الناس ، وعدم المفاضلة أمام القانون ، يقول الرسول « انما اهلك
من كان قبلكم ، أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم
الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفسى بيده لو فاطمة فعنت ذلك لقطعت
يدها » (١٨) .

وأكد الاسلام على مبدأ الشورى قال تعالى « وشاورهم في الأمر » وقال
أيضا « وأمرهم شورى بينهم » . ودعا الى اختيار الحاكم وأوجب عليه
الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله . وجعل الالتزام بتعاليم الله عقدا
سياسيا يلتزم به الحاكم والمحكوم . يقول تعالى « يا أيها الذين آمنوا
أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » النساء : ٥٩ . يقول
أبو بكر رضى الله عنه في خطبته « أطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيته
فلا طاعة لى عليكم » .

الاسلام يحارب الديكتاتورية والاستبداد ويؤكد الديمقراطية والمشاركة .
وقد كانت حياة الرسول تطبيقا عمليا لمبدأ التساوى والديمقراطية والمشاركة .
وكذا حياة الخلفاء من بعده ، لقد قال رجل لعمر بن الخطاب « لو رأينا فيك
اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا » . والديمقراطية فى الاسلام تعنى الوعى بمعنى
المشاركة والفهم لمعنى التشاور ، ولا تعنى مجرد الفوضى والارتجال . ثم ان
الاسلام عالج موضوع التعامل مع الأمم الاخرى ، متخذا من مفهوم الانسانية
هدفا وغاية ، فالناس اخوة « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم
شعوبا وقبائل لتعارفوا » فلا تفاضل بين الناس على أساس من اللون أو
الجنس أو الدم وانما الناس كلهم سواء . لذا حارب الاسلام الظلم والاستعمار .
وما شرع الجهاد الا من أجل درء الظلم ورد الاستعمار . وما كان الجهاد فى
الاسلام من أجل غزو أو استعباد وانما كان من أجل تحرير وإيمان .

وهكذا فالاسلام يعطى بتعاليمه مجالات السلوك الانسانى ابتداء من الفرد الى الجماعة الى الانسانية . وهو فى كل هذا يؤكد على الفرد أو الطبيعة الانسانية ويتخذ منها منطلقا لكل تشريعاته ونظمه .

هذه عجالة تناولات محتوى الفكر الاسلامى تناولا سريعا مكثفية بالمعالم العامة مغفلة التفاصيل والجزئيات فليس هذا مما يتسع له البحث .

الاسلام والتغير :

الحديث عن التغير يقتضى الامام - بشكل مختصر - بمصادر الفكر الاسلامى وهل تسمح هذه المصادر باحتواء التغير أو تعجز عنه .

التغير ضرورة طبيعية فى الحياة ، وبدونه لا يمكن للحياة أن تسير أو تتحرك ، لأن التحرك نفسه يعنى التغير ، ففى الجمود فناء وموت ، وفى الحركة تجدد وتقدم الطبيعة تتغير فالشمس تشرق وتغرب ، والمياه تتبخر وتتجمد ، والنبات ينمو ويذبل ، والانسان يولد ويكبر ويموت . والحياة بكل مظاهرها حركة وتغير ، ولكنه تغير محكوم بقوانين ونواميس لا يمكن أن يحدد عنها ، « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار » يس : ٤٠ .

والتغير حقيقة جوهرية فى الانسان ، وبالتغير صنع الانسان الحضارة وحقق التقدم والاسلام فى جوهره تغير ، اذ هو ثورة على التقيد والجمود ، ودعوة للحركة والعمل ، والعمل سبيل التغير . وقد اتضح اثر الاسلام كعامل تغير فى حياة العرب . ففضى على عبادة الأوثان ، وبدلهم من الذلة عزة ، ومن الفقر غنى ، ومن الضعف قوة ، وبدون التغير لا يمكن أن نفسر ايمان الناس وتحولهم عن عقيدة الشرك الى عقيدة التوحيد والتغير حقيقة أعرب عنها القرآن فى قوله تعالى « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » الرعد : ١١ .

والتغير فى مدلوله العام يشمل كل جوانب الحياة المادى منها وعالمها . وعندما يربط القرآن الكريم تغير الحياة بتغير النفس ، فذاك لأن التغير النفسى

هو مصدر التغير السلوكى ، تغير المفاهيم يستتبعه حتما تغير الاساليب والسلوك .

والاسلام - كما سبق القول - دين شامل خالد ، يلائم الفطرة ، ويوافق الطبيعة الانسانية بما فيها من طاقات وامكانات ، ولأنه دين صالح لكل زمان ومكان فلا بد أن يتسع ليشمل كل صور التغير ومظاهره ، ولا بد أن يواكب الحياة بكل تطوراتها وانجازاتها .

والتغير - كحقيقة اجتماعية - لا يعنى عدم توفر قدر من الثبات والاستقرار أى أن هناك عناصر ثبات يجب توفرها فى بناء المجتمع ، كما أن هناك عناصر تطور تعمل على رقى المجتمع وتقدمه . وتقسيم « رالف لنتون » للثقافة الى عموميات وخصوصيات وبديلات يؤكد وجود هذين الجانبين معا الثبات والتطور ، فالعموميات هى مكونات الثبات والرسوخ ، والبديلات هى عناصر الدينامية والتغير (١٩) . والثبات ضرورى لأن المجتمع لو استمر فى تغير مكوناته كلها لجاءت فترة يجد نفسه فيها قد أمحت شخصيته وذابت معالمه . والمجتمع كالكائن الحى يتغير ولكنه لا يفقد مقوماته الاساسية ، وعناصره وعدم الاعتراف بجانب الثبات فى حياة المجتمع معناه اهمال التراث الثقافى ، وعدم الاعتراف بأثر الماضى .

وفى ضوء هذا فان الاسلام كتشريع خالد ، وكنظام اجتماعى للحياة ، يضع فى الاعتبار هذين الجانبين : جانب الثبات ، وجانب التغير .

وجانب الثبات فى الاسلام يشمل الايمان بالله ، فهو عماد المجتمع وسر بقاءه ، والمجتمع بدون ايمان يضطرب ويهلك . يقول تعالى « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » الحج : ٣١ . ولأن الايمان هو محور الثبات فى كيان المجتمع ، فقد كان جوهر

(١٩) حسن الفقى ، الثقافة والتربية ، ط ٢ ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٨٨ م ، ص ١٤ ، ١٥ .

الديانات السماوية كلها ، يقول تعالى « ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » النساء : ١٣١ •

ويشمل أيضا العبادات ، الصلاة ، الزكاة ، الصوم ، الحج • فلا مجال في العبادات للتغير والتبديل فلا يمكن مثلا أن يكون العصر ثلاث ركعات ، أو أن تكون الصلاة بدون ركوع • وإنما العبادات أمور تعبدية لا مجال فيها للتغير والخافشة •

ويشمل جانب الثبات أيضا نظام الأسرة والميراث ، فشرط الزواج ، وأحكام الطلاق وغيره مما يتصل ببناء الأسرة كلها أمور ثابتة • وكذا نظام الميراث ، فلا يمكن التعديل في الأنصبة أو التغير فيها •

ويشمل جانب الثبات الحدود والعقوبات فهناك حدود صريحة وقاطعة كحد السارق والزاني ، وهذه لا مجال معها للتغير والتبديل •

ويشمل جانب الثبات المحظورات كشرب الخمر ولعب الميسر ، وأكل الميتة ولحم الخنزير •

هذا عن التغير ، أما عن مصادر الفكر الاسلامي فهي تتمثل في : الكتاب قال تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » النحل : ٨٩ والسنة وهي موضحة ومفصلة لما أجمل في القرآن الكريم • والسنة تعني كل ما ورد عن الرسول الكريم قولا وعملا واقتداء • ويقول الرسول في القرآن والسنة « تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا • كتاب الله وسنة رسوله » •

أما المصدر الثالث فهو الاجماع : وهو يعني اجماع الأمة ، وقد اتفق أهل السنة على الاحتجاج باجماع الصحابة في الدينيات ، والشيعية على اجماع أهل البيت في عرفهم ، وفي اجماع المجتهدين من غيرهما تفصيل (٢٠) •

والمصدر الاخير هو الاجتهاد ، وقد أقره الرسول الكريم ، فقد روى عن

(٢٠) محمد رشيد رضا ، الوحي المحمدي (مرجع سابق) ص ٢٤١ •

عمرو بن العاص - رضى الله عنه - أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « اذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، واذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » (٢١) .

فالاجتهد ليس مصدرا مستقلا عن القرآن والسنة ، وانما هو محاولة للتفسير ، ولتوضيح المبادئ العامة ، والقياس عليها ، وللاجتهد أسس وقواعد ينبغى الالتزام بها فهو ليس مجرد تفسيرات ذاتية أو انطباعات خاصة محكومة بالهوى والرغبة ، وانما هو مصدر موضوعى علمى لا مجال فيه لمثل ذلك .

فالاجتهد مصدر تشريعى يهدف الى احتواء الجديد ، واجازته ، ومنحه صفة الشرعية وقوة القانون . والمذاهب الفقهية الكبرى تؤكد دور الاجتهاد فى معالجة الجديد من الوقائع والاحداث معالجة اسلامية ، وفى قدرته على ابراز جانب المرونة والحيوية فى الاسلام . ويوم ان توقف العمل بهذا المصدر، يوم أن جمد المجتمع الاسلامى ورمى أعلاه بالتخلف والجمود . وعناصر التطور التى يمكن أن يعالجها الاجتهاد تشمل الامور الدنيوية من حلال وحرام ، وسياسة واقتصاد ، وآداب . فاذا لم يرد فيها نص قاطع كان الاجتهاد . كذا ما ورد فيها نص غير تكليفى كالاحديث المتعلقة بالعادات والطعام والشراب . وكذا ما سكت عنه الشارع ولم يرد فيه فعل أو ترك (٢٢) .

الاسلام والتفكير :

واذا كان الاسلام هو دين الفطرة والشمول واليسر واذا كان هو تشريعا للحياة ، وتنظيما لها ، واذا كان هو سبيل التطور . فذاك لأنه دين الفكر والتعقل والمعرفة ، فمن مقتضيات الفطرة التفكير ، وطابع الشمول لا يتحقق

(٢١) عبد الله الشرقاوى ، فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى ، (جزء ٣) ، القاهرة ، مطبعة حجازى ، ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م ، ص ٣٨٤ .
(٢٢) عبد العزيز كامل ، الاسلام والعصر ، سلسلة اقرأ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٢ م ، ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

الا بالفكر فهو وحده القادر على الاحاطة والمام بجزئيات الحياة ، والتشريع لا يمكن أن يكون مثمرا الا اذا قام على أساس عقلاى ، والتطور لا يحدث الا بالتفكير .

وهكذا فان أسلوب الاسلام فى التعامل هو أسلوب التفكير سواء فى مجال العبادات او مجال المعاملات حتى العقيدة نفسها أو الايمان نفسه فيقوم على التفكير .

والمتصفح لكتاب الله يجده يحث على التفكير ويرغب فيه . وللمعرفة فى القرآن الكريم طرق متعددة منها طرق النظر والملاحظة للكويت السموات والأرض ، وطريق ربط الأسباب بالمسببات ، قال تعالى « ونزلنا من السماء ماء بقدر ، فأنبثنا به جنات وحب الحصيد » . ومنها طريق الشعور الباطنى ، وقال تعالى « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » . ومنها طريق المغفولات المحضة أى ما يصل فيه الانسان عن طريق الفكر البحث ، وقال تعالى « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا » .

ومنها طريق البديهيات العقلية ، وهذه الطريق تعرف بالطريق الديكارنى ، فالملخوق مثلا يدل على وجود خالق (٢٣) .

والتفكير كما يقول العقاد فريضة اسلامية ، اذ لا يذكر القرآن العقل الا فى مقام التعظم والتنبيه الى وجوب العمل به ، ولا تأتى الاشارة اليه عارضة ، بل هى تاتى فى كل موضع مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة (٢٤) .

والآيات القرآنية التى تحت على التفكير والتدبر كثيرة منها قوله تعالى « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت ، والى الجبال

(٢٣) محمد غلاب ، المعرفة عند مفكرى المسلمين ، القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ م ، (طرق المعرفة كما عرضها القرآن الكريم) .
(٢٤) عباس محمود العقاد ، التفكير فريضة اسلامية ، ط ١ ، القاهرة ، دار القلم ، ص ٥ .

كيف نصبت ، والى الأرض كيف سطحت » الغاشية : ١٧ - ٢٠ . وقوله تعالى
« ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار آيات لاولى الالباب »
آل عمران : ١٩٠ ، قوله تعالى « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها
وزيناها ، ومالها من فروج ، والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسي » ق :
٦ - ٧ .

والآيات متعددة وكثيرة تستحث العقل ، وتدفعه الى البحث والتأمل .
والاستنتاج . فالتفكير اذا - أسلوب القرآن ومنهجه في التشريع والعقيدة .
والتفكير الاسلامي ليس تفكيراً تجريدياً ، أو تأملياً فقط ، وانما هو تفكير
ذكي ، تفكير تجريبي أيضاً ، يخطط للعمل ويوجه للسلوك مسترشداً بتعاليم
الله وسنة رسوله .

هدف الفكر الاسلامي :

وعن هدف الفكر الاسلامي فانه يهدف الى تحقيق السعادة والأمن للبشرية
والحياة في سلام ومؤاخاة . وهذا لا يتحقق الا بعبادة الله عندما تحرر النفس
من كل قيود الجسد ، ومن كل عوامل العبودية ، عندئذ تكون حرة قوية
لا تخضع الا لله ولا تعبد الا الله فتمتثل لأمره ، وتتجنب ما نهى عنه .
بقول تعالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » الذاريات : ٥٦ . ويقول
تعالى « يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »
البقرة : ٢١ .

فالعبادة هي مصدر السعادة ، وهي الضمان الوحيد لتحقيق خلافة الله
في الأرض . هذا عن الفكر الاسلامي من حيث خصائصه ، ومحتواه ، وأساليبه
وغاياته يبقى بعد هذا أن نلم بأبعاد الطبيعة الانسانية في ضوء هذا الفكر والى
أى مدى كان هذا الفكر منسجماً تماماً مع هذه الأبعاد ، بل وقائماً عليها .
فالانسان هو الذي يؤمن وهو يعمل ، والايمان والعمل يكونان الاسلام فالوقوف
على تصور الاسلام للطبيعة الانسانية يعنى الامام بباعث الفكر الاسلامي
وداعييه .

الطبيعة الانسانية مناهج الخلافة :

فيما سبق تناولنا الفكر الاسلامي ، ولعله قد اتضح أن هذا الفكر كان يستهدف، تصحيح العقيدة كما كان يستهدف ضبط السلوك الانساني وتوجيهه .

وعنا نعرض للطبيعة الانسانية من حيث كونها مناهجاً لاستخلاف الله لها في الأرض ، من أجل تنفيذ احكامه ، وامثال أوامره .

يقول الله تعالى « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون » البقرة : ٣٠ - ٣٣ . ويقول تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً » . النور : ٥٥ .

وفي ضوء هذه الآيات يمكن القول بان الله تعالى قد شاء أن يكون آدم الانسان خليفة الله في أرضه . ولم يكن آدم او الانسان أول ما خلق الله تعالى من عباده . فقد خلق من قبله الملائكة والجن . ويتضح ذلك من سياق الآيات ، اذ تدعش الملائكة لخلق كائن جديد يسعى في الأرض فسادا يقتل ويرق الدماء كما فعل الجن من قبل (٢٥) . معنى هذا أنه كان يوجد الملائكة من قبل الملائكة ، وخشية الملائكة ان يكون هذا الكائن الجديد مثل الجن في الافساد اذ هم السائلون ، كما أنه كان يوجد الجن من قبل اذ هم محط اعتراض

(٢٥) تفسير الجلالين ، ص ٦ .

واراقسة الدماء • وخلق آدم كان ايذانا بتحول جديد في حياة الوجود « ظهرت بادرته الأولى حين تلقت الملائكة النبا الالهى المؤذن بخلق آدم خليفة في الأرض، فبدأت تفكر في العلل والاسباب على غير المعهود في طبيعتها من الازعان والتسليم، وقيامها بأمر الله دون تفكير أو مراجعة » (٢٦) • ولعل مايدعم هذا ان الملائكة لم تقف موقف المسائل الا في هذا الموقف ، وما عداه فان الملائكة هم رسل الله المسخرون لعبادته وطاعته « لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون » وليس من طبيعة الملائكة الجدل أو المناقشة ، ولا من صفاتهم التفكير والسؤال ، ولذا كان اعتراض ابليس على خلق آدم تمردا خطيرا على هذه الطبيعة ، وما عرفت به من الطاعة والخضوع ، كما كان ايذانا ببداية مرحلة جديدة يحتدم فيها الصراع بين الخير والشر • والخضوع والاختيار ، غادمية الانسان ليست ملائكية الخضوع والتسليم ، ولا ابليسية التمرد والعصيان ، وليست جبرية التسليم ، ولا حرية العصيان والتمرد • وانما آدمية الانسان هى تحقيق للذات عن وعى وحرية وارادة • ومن هنا يكون الابتلاء لآدم ، ومن هنا يكون التحول في الوجود ، لقد شاء الله أن يخلق هذا الانسان ، وأن يجعله في الأرض ، وشاء أن يفضل على الملائكة فأمرهم بالسجود له « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس » ، وعندما رفض ابليس السجود لآدم طرده الله من رحمته ، وأنزل به لعنته • فكرم الله تعالى الانسان ومجده في شكل سجود الملائكة له •

ويقال ان الله تعالى عندما خلق آدم خلقه من اديم الأرض بان قبض منها قبضة من جميع ألوانها وعجنت بالمياه المختلفة وسواه ونفخ فيه الروح فصار حيوانا حساسا بعد أن كان جمادا » (٢٧) • يقول تعالى « ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون » الحجر : ٢٦ • ويقول أيضا « خلق

(٢٦) عائشة عبد الرحمن ، مقال في الانسان ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ م ، ص ٢٧ •
(٢٧) تفسير الجلالين ، ص ٧ •

الانسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من تار » الرحمن : ١٤
- ١٥ . فهذا الانسان الآدمي قد شاء الله له ان يكون خليفته في الأرض ،
ومع انه خلق من صلصال الا انه كرمه ، وزاد في تكريمه عندما خلقه على
صورته ، كما قال الرسول الكريم خلق الله تعالى آدم على صورته .
وزاد في تكريمه ايضا عندما جعل تعالى من اسمائه الحسنى مثلا للانسان
وقيما له يستهدى بها في سلوكه ، ويستترشد بها في سعيه . فجعل الرحمة
والحكمة والعلم والقدرة والخبرة والعزة وغيرها من الصفات ، حتى عندما اراد
الله ان يقترب من وجدان الانسان وخياله تشبه له بصفاته فهو ذو الوجه
واليد « ويبقى وجه ربك » يد الله فوق ايديهم .

فالانسان جمع من الطاعة المطلقة والاختيار ، ومن الجبرية والحرية ،
من الخير والشر ، وحين يميز الله تعالى الانسان بالعقل ، فذاك ليساعده
على أداء رسالته وتحقيق الخلافة في الأرض .

ومن هنا فان ابتلاء الانسان انما يكون في تركيبه الغريب « انا خلقنا
الانسان من نطفة أمشاج نبئليه » . الانسان : ٢ . وفي جوهره المتناقض .
ولم يكن غير هذا الكائن الانساني بقادر على أن يحقق الخلافة في الأرض «
انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها ،
وأشفقن منها ، وحملها الانسان ، انه كان ظلوما جهولا » . الأحزاب : ٧٢ .
واذا كن الانسان قادرا على أن يصعد الى عالم السموات والنقاء بحيث يضاهي
الملائكة ، فانه ايضا قد يتردى في مهاوى الرذيلة والرغبة بحيث يتساوى
مع الحيوان وينزل لمرتبته . وهو وحده القادر على ان يدرك ذلك أو يصل
لهذا ، فهو ليس الملاك المطيع الذي لا يقوى على الخروج عن الطاعة ، وليس
الحيوان الجسمي الذي يعجز عن التسامي والارتقاء . وانما هو بما أوتي من
قوة في الروح وقدرة في البدن ، ووعي في التفكير قادر على ان يكون الانسان
الخليفة ، وان يعمر هذه الأرض .

والطبيعة الانسانية حين تحقق هذه الخلافة فانما تركز على أسس

ثلاثة: العلم والايمان والعمل . وهذا ما تؤكده الآيات السابقة فاختيار الله تعالى لآدم وتفضيله اياه على الملائكة كان بفضل العلم « وعلم آدم الاسماء كلها » . كما أن وعد الله بالاستخلاف في الأرض كان مشروطا بالايمان والعمل « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات . . » وهذه الركائز الثلاث تكون جوهر الاسلام وحقيقتها ، فالايمان طريقة العلم ، والعمل ليكون عملا طيبا ومثمرا سبيله العلم أيضا . كما ان هذه الركائز الثلاث تكون خواص ذاتية في الطبيعة الانسانية ، فالطبيعة الانسانية بفطرتها نزاعة للمعرفة محبة للاستطلاع ، بحاجة الى البحث والعلم حتى تبقى على كيانها وتحفظ وجودها ، وتحقق ذاتها بين الكائنات الاخرى . وهي في بحثها ومحاولتها التعرف تكون افكارا تتخذها عقيدة لها تؤمن بها وتعتنقها وهي تتخذ من العقيدة مرشدا لها في ممارسة نشاطها وسعيها في الحياة .

فالطبيعة الانسانية حين تحقق الخلافة فانما تحقق ذاتها ، وهي في تحقيقها لذاتها تحقيقا سويا انما تحقق الاسلام وتجسد مبادئه . فتحقيق الخلافة أمر فطرى في الطبيعة الانسانية وتحقيق الخلافة يعنى الدين ، فالدين فطرى في الطبيعة الانسانية .

وتحقيق الخلافة مسئولية ، على الطبيعة الانسانية أن تقوم بها ، وتكليف يجب ان تنهض له وبقدر ماتحقق هذه الخلافة ، وبقدر ماتنهض به من تبعات المسئولية وضرورات التكليف بفدر ماتحقق ذاتها ، وتؤكد وجودها . فالخلافة سعى وعمل وجهاد ومكابدة « لقد خلقنا الانسان في كبد » . البلد : ٤ .

فالطبيعة الانسانية ليست مفهوما غيبيا ، ولا ماهية مجردة ، وانما هي وجود حى واقعى يتحدد من خلال سلوكه ، ونشاطه ، ومن خلال اختياره وارادته وقدرته على التنفيذ ، متخذا من العلم سبيلا له ومنهجيا يلتزم به ، ومن الايمان مصدر انطلاق وثبات ، ومن العمل أداة بناء واعلاء لكلمة الله ، وتحقيق لخلافته في الأرض .

فمستولية الطبيعة الانسانية هي مسئولية جد جسيمة ، ولا يصلح لها من الكائنات الا الانسان « فهو مخلوق على لمصورة الخالق ، مخلوق تربط به امانة التكليف الى اسفل سافلين ، وترتفع به الى أعلى عليين » (٢٨) .

مفهوم الطبيعة الانسانية في التعبير القرآني :

عبر القرآن الكريم عن الطبيعة الانسانية بالفاظ عديدة ومختلفة الدلالة، ولكنها في مجموعها ترسم صورة متكاملة وواضحة لها . والالفاظ التي استخدمها القرآن في تعبيره البلاغي المعجز هي : الانسان ، النفس ، الروح ، البشر ، الانس .

ولقد ورد لفظ الانسان في المواطن الاتية : في سورة الاسراء : ١٣ « وكل انسان أآزمناه طائره في عنقه » . وسورة النساء : ٢٨ « يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » . وفي سورة يونس : ١٢ « وإذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضره » . وسورة هود : ٩ « ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه أنه ليكفور » . وسورة ابراهيم : ٣٤ « وآآاكم من كل ما سألتموه ، وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها أن الانسان لظالم كفار » . وسورة النحل : ٤ « خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين » . وسورة الاسراء : ١١ ، ٦٧ ، ٨٣ ، ١٠٠ « ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير ، وكان الانسان عجولا » ، « وكان الانسان كفورا » ، « وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه الشر كان يئوسا » ، « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا أمسكنم خشية الاتفاق وكان الانسان قنتورا » . وسورة الكهف : ٥٤ « ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ، وكان الانسان أكثر شيء جدلا » . وسورة مريم : ٦٦ - ٦٧ « ويقول الانسان إذا مامت لسوف أخرج حيا ، أو لا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » . والانبياء : ٣٧

(٢٨) عباس محمود العقاد ، حقائق الاسلام وإياطيل خصومه ، ط ٢ ، القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٢ م ، ص ٩٢ .

« خلق الانسان من عجل سآريكم آياتى فلا تستعجلون » • والحج : ٦٦
 « وهو الذى احياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور » • والعنكبوت :
 ٨ « ووصينا الانسان بوالديه حسنا » • والمؤمنون : ١٢ « ولقد خلقنا الانسان
 من سلالة من طين » • ولقمان : ١٤ « ووصينا الانسان بوالديه .. »
 والاحزاب : ٧٢ « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين
 أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » • ويس : ٧٧
 « أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » • والزمر : ٤٩، ٨
 « وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ، ثم اذا
 خوله نعمة منه نسى » قال أنما أوتيته على علم » • وفصلت : ٤٩ ، ٥١
 « لا يسألم الانسان من دعاء الخير ، وان مسه الشر فيئوس قنوط » ، « وإذا
 أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه » • والزخرف : ١٥ « وجعلوا له من
 عباده جزءا ان الانسان لكفور مبين » • والأحقاف : ١٥ « ووصينا الانسان بوالديه
 احسانا » • • والرحمن : ٣ « خلق الانسان علمه البيان » • والمعارج : ١٩
 « ان الانسان خلق هلوعا » والقيامة : ٣ ، ٥ ، ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ٣٦
 « أيحسب الانسان أن لن نجعله عظامه .. بل يريد الانسان ليفجر أمامه ..
 يقول الانسان يومئذ أين المجر .. ينبا الانسان يومئذ بما قدم وآخر ..
 أيحسب الانسان أن يترك سدى » • وسورة الانسان : ١ ، ٢ « هل أتى على
 الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا • انا خلقنا الانسان من نطفة
 أمشاج نبتليه » • وسورة النازعات : ٣٥ • « يوم يتذكر الانسان ماسعى » •
 وسورة عبس : ١٧ ، ٢٤ « قتل الانسان ما أكفره » • فلينظر الانسان الى
 طعامه » • وسورة الانفطار : ٦ « يأيها الانسان ما غرك بربك الكريم » •
 وسورة الطارق : ٥ « فلينظر الانسان مم خلق » وسورة الانشقاق : ٦
 « يأيها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » • وسورة الفجر : ١٥ ، ٢٣
 « فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن » • يومئذ
 يتذكر الانسان وأنى له الذكرى » • وسورة البلد : ٤ « لقد خلقنا الانسان فى
 كبد » • وسورة التين : ٤ « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » • وسورة
 العلق : ٢ ، ٥ ، ٦ • « خلق الانسان من علق » ، « علم الانسان ما لم يعلم » -

« كلا ان الانسان ليطغى » • وسورة الزلزلة : ٣ « وقال الانسان مالها » •
وسورة العاديات : ٦ « ان الانسان لربه لكنود » • وسورة العصر : ٢ « ان
الانسان لفي خسر » •

ولفظ « بشر » ورد في المواطن الاتية ، في سورة آل عمران : ٤٧ ، ٧٩
« قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر » ، « ماكان لبشر أن يؤتيه
الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله » •
وسورة المائدة : ١٨ « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل
فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق » • وسورة الأنعام : ٩١
« وماقدروا الله حق قدره اذ قالوا ماانزل الله على بشر من شيء » • وسورة
ابراهيم : ١٠ ، ١١ « قالوا ان أنتم الا بشر مثلنا » ، « قالت لهم رسلهم ان
نحن الا بشر مثلكم » • والحجرات : ٢٦ « ولقد خلقنا الانسان من صلصال
من حمأ مسنون » وسورة النحل : ١٠٣ « ولقد علم أنهم يقولون إنما يعلمه
بشر » • وسورة الكهف : ١١٠ « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي الى أنما الهكم
اله واحد » • وسورة مريم : ٢٠ « قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر » •
وسورة الأنبياء : ٣٤ « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد » • وسورة المؤمنون :
٢٤ ، ٣٣ « فقال الملأ من قومه ماهذا الا بشر مثلكم » • « ماهذا الا بشر
مثلكم يأكل مما تاكلون منه ويشرب مما تشربون » • وسورة الشعراء :
١٥٤ ، ١٨٦ « ماأنت الا بشر مثلنا » « وما آتت الا بشر مثلنا وان نظنك
لن الكاذبين » • وسورة الروم : ٢٠ « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم
اذا أنتم بشر تنتشرون » • وسورة يس : ١٥ « قالوا ماأنتم الا بشر مثلنا ،
وما أنزل الرحمن من شيء » • وسورة فصلت : ٦ « قل إنما أنا بشر مثلكم
يوحي الى أنما الهكم اله واحد » • وسورة الشورى : ٥١ « وما كان لبشر أن
يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » • وسورة التغابن : ٦
« وذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا » •

ولفظ « روح » ورد في المواطن الاتية : في سورة البقرة : ٨٧ ، ٢٥٣
« وأتينا عيسى بن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس » • وسورة النساء :
١٧١ « • • • إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته أنفا الى مريم ،
روح منه » والمائدة : ١١٠ « اذا قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك

وعلى والدتك اذ أيتك بروح القدس » • وسورة النحل : ٢ « ينزل الملائكة بالروح من أمره » • وسورة الاسراء : ٨٥ « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي » • وسورة الشعراء : ١٩٣ « نزل به الروح الأمين » • وسورة غافر : ١٥ « رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره » • وسورة المجادلة : ٣٢ « أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » • وسورة المعارج : ٤ « تعرج الملائكة والروح اليه » •

ولفظ « نفس » ورد في المواطن الآتية : في سورة آل عمران : ١٤٥ « وماكان لنفس ان تموت الا باذن الله » • وسورة النساء : ١ « يأيتها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » • وسورة المائدة : ٣٢ « من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس » والانعام : ٧٠ « وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت » • والاعراف : ١٨٩ « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » • ويونس : ٣٠ « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » • وسورة هود : ١٠٥ « يوم يأت لاتكلم نفس الا باذنه » • ويوسف : ٥٣ « وما أبرء نفسي أن النفس لأمارة بالسوء » • والرعد : ٣٣ « ألمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » • وابراهيم : ٥١ « ليجزى الله كل نفس ماكسبت » والنحل : ١١١ « يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت » والاسراء : ٣٣ « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » • والكهف : ٧٤ « قال أفتلنت نفسا زكية بغير نفس » • وسورة طه : ١٥ « إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى » • والانبياء : ٣٥ « كل نفس ذائقة الموت » • والفرقان : ٦٨ « والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق » • والعنكبوت : ٥٧ « كل نفس ذائقة الموت ثم اليها ترجعون » ولقمان : ٢٨ « ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة » • والسجدة : ١٣ « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » • ويس : ٥٤ « فاليوم لاتظلم نفس شيئا » • والزمر : ٦ « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها » • وغافر : ١٧ « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت » • والجاثية : ٢٢ « وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت » وسورة ق : ٢١ « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » والحشر : ١٨ « يأيتها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد » • • والمدثر : ٣٨ « كل نفس بما كسبت رهينة » • والقيامة : ٢

« ولا أقسم بالنفس اللوامة » والنازعات : ٤٠ « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى » . والتكوير : ١٤ « علمت نفس ما أحضرت » والافتطار : ٥ « علمت نفس ما قدمت وأخرت » والطارق : ٤ « ان كل نفس لما عليها حافظ » . والشمس : ٧ « ونفس وما سواها » . والبقرة : ٧٢ « واذا قتلتهم نفسا فادا رأتهم فيها ٠٠ » والنساء : ٤ « ٠٠ فان طبن لكم عن شيء منه نفسا » . الاعراف : ٤٢ « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكف نفسا الا وسعها » والكهف : ٧٤ « ٠٠ قال اقتلت نفسا زكية بغير نفس » . والمؤمنون : ٦٢ « ولا نكلف نفسا الا وسعها ٠٠ » والقصص : ١٩ « قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا ٠٠ » المنافقون : ١١ « ولن يؤخر الله نفسا اذا جاء أجلها » والانطلاق : ٧ « ٠٠ لا يكلف الله نفسا الا ما آتاهها » . والنساء : ٧٩ « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » . والاعراف : ٢٥ « واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة » . الاسراء : ١٤ « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » والكهف : ٦ « فلعنك يا خع نفسك على آثارهم ٠٠ » والاحزاب : ٣٧ « واثق الله وتخفى في نفسك ما الله مبديه » (٢٩) .

والقرآن الكريم حين يستخدم هذه الألفاظ : انسان ، نفس ، بشر ، روح لا يستخدمها كمترادفات ، وانما لكل لفظ من هذه الألفاظ الاربعة دلالة خاصة تميزه عن غيره ، فالملاحظ من سياق الآيات التى عرضت للفظ « بشر » ان هذا اللفظ يعنى الجانب المادى فى الانسان ، فالمشركون يعترضون على أن يكون الرسول بشرا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، وحين يرد الرسول الكريم « هل كنت الا بشرا رسولا » فانه يذمر الجانب المادى فى الانسان أى الجانب الجسمانى وجميع بنى الانسان يلتفتون فى هذا الجانب ، وقد ورد لفظ « بشر » فى خمسة وثلاثين موضعا فى القرآن الكريم ، منها خمسة وعشرون موضعا فى بشرية الرسل والأنبياء .

ولفظ « روح » يطلق على الجزء غير المادى فى الانسان ، وأحيانا يطلق ويراد به جبريل عليه السلام . فصلته بالطبيعة الانسانية هنا انه يعرض لجانب منها وهو جانب الروح . والروح لا يدرك كنهها الا الله تعالى « قل

(٢٩) انظر : محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، القاهرة ، دار الكتاب المصرية ، ١٣٦٤ هـ .

الروح من أمر ربى » ، والذي يمكن أن يدركه الانسان انما هو فيما تقوم به من وظائف . والروح محط السمو والترقى والاتصل بعالم الملكوت ، وهو الجانب النوراني في الانسان .

ولفظ « نفس » يطلق في القرآن الكريم ، ويراد به أحيانا الانسان ككل في جانبه الجسمي وجانبه الروحي ، يدعم هذا قوله تعالى « ونفس وماسواها فآلهمها فجورها وتقواها » . فالتسوية انما تكون للجانب المادي وهو الجسم كقوله تعالى « ثم سواء ونفخ فيه من روحه » . والهام الفجور والتقوى انما يكون لجانب الروحي في الانسان .

وأحيانا يطلق لفظ « النفس » ويراد به بعض صفاتها مثل « ان النفس لأمارة بالسوء » ومثل « ولا أقسم بالنفس اللوامة » .

أما لفظ « الانسان » فهو مأخوذ من مادة « أنس » وهذا يعنى أن الانسان ليس وحشيا ، وانما هو مدنى بالطبع . والقرآن الكريم يستخدم هذا اللفظ بدلالات عديدة وان كانت تلتقى في معنى واحد ، فالانسان قد يطلق ويراد به أحيانا الكافر مثل قوله تعالى « قتل الانسان ما أكفره » ، « يأبىها الانسان ما عرك بربك الكريم » . ويطلق ويراد به أحيانا أخرى حقيقة الانسان فهو جزع وطمع « خلق الانسان ملوعا » ظالم جامل « انه كان ظلوما جهولا » متعجل في الأمور « خلق الانسان من عجل » . ضعيف « خلق الانسان ضعيفا » وهو يعيش في الحياة يعانى ويكابد « لقد خلقنا الانسان في كبد » . وحياته في كبح مستمر « يأبىها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه » . وهو كثير الجدل والحوار « وكان الانسان أكثر شيء جدلا » والانسان بخيل « وكان الانسان قتورا » وهو القادر على الابانة والانصاح عما في النفس « خلق الانسان علمه البيان » . وهو مخلوق من نطفه ومن سلالة من طين « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » ومع أن الله تعالى قد نعت الانسان بهذه النعوت المختلفة من عجل وظلم وجدال وبخل وغير ذلك الا أن هذه النعوت من ناحية أخرى تؤكد عظمة الانسان وأحقية للخلافة في الأرض ، فما لامة الله تعالى وأنبه ، وعاب عليه فعله هذا الا لانه لم يفد من القدرات التى منحها الله له والنعم العديدة التى أنعم

بها عليه • فعقاب الله للإنسان هو عقاب المستخلف لخليفته الذى يستنهضه ويستحثه ويدفعه الى العودة لطاعته وعبادته والخضوع له •

واحتمال تبعات التكليف وامانة الانسان • ولقد ورد لفظ « الانسان » فى القرآن فى خمسة وستين موضعاً كلها تؤكد هذه الميزة التى اختص بها من بين الكائنات وهى ميزة الاستخلاف فى الأرض • فالإنسان كائن مَادى رُوحى ، قد تجرّفه نزعاته المادية فتصرفه عن هداية الله وطاعته • وقد تسمو به روحه فيرقى الى مستوى الملائكة • وحين يصفه الله تعالى بصفات ذميمة فذلك من قبيل التذكير والتنبية والحث والايقاز • وحين يمجده ويعظمه أمام ملائكته فذلك ليؤكد جدارته بالخلافة واستحقاقه لها بالايمان والعمل والعلم • « يحسب الانسان أن يترك سدى » •

هذا هو الانسان أو هذه هى الطبيعة الانسانية كما تناولها القرآن الكريم في تعبيره المعجز فالألفاظ الاربعة : بشر ، نفس ، روح ، انسان ، ألفاظ ذوات دلالات مختلفة ولكنها غير متناقضة ، ألفاظ تلقى الضوء على حقيقة الطبيعة الانسانية ومفهومها •

الطبيعة الانسانية فى الفكر الاسلامى :

بعد أن عرضنا لمفهوم الطبيعة الانسانية كما تناولها التعبير القرآنى نعرض هنا للطبيعة الانسانية فى جوانبها المختلفة والتى سبق تناولها فى بعض الفلسفات الغربية • هذه الجوانب هى : تركيب الانسان أو تكوينه - الحرية والجبرية - الخير والشر فيها - الوراثة والبيئة - الفردية والاجتماعية النوع •

ويمكن القول بادىء ذى بدء - بأن الاسلام يركز على مبدأ التكامل والتوازن فى تناوله لهذه الجوانب ، فهو لا يغلب جانباً على آخر ، وانما يحدث بينهما نوعاً من التوازن بما يكفل لها وجودها الطبيعى ، ويجعلها قاصرة على مزاولة دورها • وهى الجوانب كما تناولها الاسلام وفسرها بعض المفكرين الاسلاميين •

١ - تكوين الطبيعة الانسانية :

في تناولنا لبعض الفلسفات الغربية اتضح ان بعض الفلسفات كانت تدبر بالنظرة الثنائية بمعنى تقسيم الطبيعة الانسانية الى جسم وروح ولا مجال للتكامل بينهما . كما اتضح ان بعض الفلسفات الاخرى لم تقل بالثنائية ، ولكنها فالت بالاحادية ، فالماركسية مثلا رأت ان الطبيعة الانسانية مادة في حركتها وتغيرها ونموها ، وأن كل المظاهر التي تسمى شعورية ان هي الا اشكال مختلفة لتطور حركة المادة وتغيرها . وبعض الفلسفات غلب جانب الذات أو الروح على جانب الجسم كما يتضح لدى الوجودية . باستثناء البرجماتية التي قالت بضرورة التكامل بين الجسم والروح ، وان كانت تقلب جانب الجسم على الروح . أما تناول الاسلام للطبيعة الانسانية في تكوينها فهو تناول المحيط بجوانبها ، العليم بخفاياها وقدراتها ، الخير بعناصرها وتكاملها . وهذا امر طبيعي فالاسلام هو دين الله ، والله تعالى هو خالق الطبيعة الانسانية ، وخلقها بالشكل الذي يجعلها قادرة على أداء رسالتها واستغلالها في الأرض رغم ما فيها من تناقض يتضح هذا من خلال الآيات القرآنية التي تعرض للانسان وصفاته مثل قوله تعالى « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » فهو مخلوق تصدر عنه الحسنة كما تصدر عنه السيئة . وهو يجمع بين نوازع الخير ونوازع الشر « انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه » فالامشاج هي النوازع التي تعنى نوازع الخير ونوازع الشر كافة ، وهي التي تؤدي للاتجاهات المتباينة والأغراض المختلفة (٣٠) .

والقرآن الكريم في تناوله لتكوين الطبيعة الانسانية يقرر أن الانسان يتكون من مادة وروح يتضح هذا من قوله تعالى « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » الحجر : ٢٩ وقوله تعالى « الذي خلقك فسواك فعدلك في أى صورة ما شاء ركبك » فالتسوية هنا للبدن ، ومعنى « سواك » أى جعلك مستوى الخلقه سالم الاعضاء متناسبها (٣١) . كما يتضح أيضا

(٣٠) منير أحمد القاضى ، الانسان والشيطان في القرآن ، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة القاهرة ، كلية الآداب ، ١٩٧١ م ، ص ص ١٠٥ - ١١٥ .

(٣١) تفسير الجلالين ، ص ٥٠٣ .

من قوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفه في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفه علقه ، فخلقنا العلقه مضغه ، فخلقنا المضغه عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » . المؤمنون : ١٢ - ١٤ ، والآيات هنا تشير الى ان الانسان يتكون من جسم وروح . فالخلق الآخر يعنى الروح التى ينفخها الله في الجسد . ويؤكد هذا أيضا قوله تعالى « ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقه مخلوق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والانثى » الفتيمة : ٣٦ - ٣٩ . فالخلق والتسوية هما للبدن . وقوله تعالى « هو الذى يصوركم في الارحام كيف يشاء » آل عمران : ٦ ، ويقول الرسول الكريم « ان احدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما ، ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك . ثم يكون في ذلك مضغه مثل ذلك يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » (٣٢) .

فالقرآن الكريم والحديث الشريف يؤكدان أن الطبيعة الانسانية تتكون من الجسم والروح . ولفظ الروح يقصد منه المظاهر غير المادية فيشمل العقل والوجدان ، أو العقل والقلب . والقرآن الكريم به الكثير من الآيات التى تعرض للعقل أو لوظائفه من التفكير والتدبير والنظر والعلم والاعتبار والتعقل مثل قوله تعالى « .. ويتفكرون في خلق السموات والأرض » ومثل قوله تعالى « قل سمروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » ومثل قوله تعالى « فاعتقبروا يا أولي الأبصار » الحشر : ٢ . ومثل قوله تعالى « انظروا كيف يتدبرون » القرآن أم على غلوب أفتائها » محمد : ٢٤ . ومثل قوله تعالى « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » الانفال : ٢٢ . ومثل قوله تعالى « ان أولياؤه الا الحقون ولكن أكثرهم لا يعلمون » الانفال : ٣٤ .

والقرآن الكريم أيضا به الكثير من الآيات التى تعرض للقلب ومظاهره الوجدانية مثل الحب « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » والكراهية مثل قوله تعالى « وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » والخوف مثل قوله تعالى « الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم » وكظم الغيظ مثل قوله تعالى « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » . والرحمة مثل قوله تعالى

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ٠٠ »
الفتح : ٢٩ . والنعل مثل قوله تعالى « خلق الانسان من عجل » والحسد
مثل قوله تعالى « أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله » النساء .
والحزن والفرح مثل قوله تعالى « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما
آتاكم » الحديد : ٢٣ . والنصيق مثل قوله تعالى « وأصبر وما صبرك
إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون » النحل : ١٢٧ .
وغير ذلك من المظاهر الشعورية .

وقد أشار القرآن الكريم لمكان القلب من الجسد وذلك في قوله تعالى
« وأسروا قولكم أو اجهروا به ، انه عليم بذات الصدور » سورة الملك : ١٣ .
وفي قوله تعالى فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن
يضلّه يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء » . فالملاحظ من الآيتين
السابقتين أن القلب محله الصدر . « وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحس
ما في قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور » آل عمران : ١٥٤ . كما أشار الرسول
الكريم إلى مكان القلب من الجسد عندما قال « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا
صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » .
وكذا أيضاً في قوله « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا أجسادكم ، ولكن ينظر
إلى قلوبكم ، التقوى ها هنا ، التقوى ها هنا ويشير لصدره » . فالقلب عضو
من الأعضاء ، ومكانه الصدر . ومع أن الأبحاث الطبية الحديثة تؤكد أن المشاعر
ليس موطنها القلب ، إلا أنها لا يمكن أن تنكر أثر هذه المشاعر على عضو القلب
وأنه أكثر الأعضاء تأثراً واستجابة لها . ويوضح هذا قوله تعالى « واذ زأغت
الابصار ، وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا » الأحزاب : ١٠ .
فالفرع الذي سيطر على المنافقين اتضح أثره في علو وهبوط القلب حتى أنه بلغ
الحجرة .

ويمكن القول بأن القرآن الكريم يقسم الطبيعة الانسانية الى قسمين:
جسم وروح ، أو مادة وغير مادة . والروح تشمل العقل . أى أن أجزاء الطبيعة
الانسانية ثلاثة الجسم ، العقل ، القلب .

وهذا التقسيم لا يعنى أن كل جزء من هذه الأجزاء مستقل بذاته ، بل

هى متكمله فيما بينها متعاونه من أجل غرض واحد هو الايمان بالله والعمل
بأوامره .

ويتضح هذا من قوله تعالى « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس
لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون
بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل » الاعراف : ١٧٩ . ومن قوله تعالى
« ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيدي يبسطون بها ، أم لهم أعين يبصرون
بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم » . الاعراف : ١٧٩ .
وقوله تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة »
البقرة : ٧ ، وقوله تعالى « يوم نشهد عليهم أسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما
كانوا يعملون » النور : ٢٤ .

الجسم مكمل للروح ، والروح لا يستغنى عنها الجسم ، فالعقل بحاجة الى
المعرفة والعلم ، ومن ثم فهو بحاجة الى الحواس الخمس كمصادر للمعرفة .
وهذه الحواس أعضاء في البدن أى أن البدن بحواسه الخمس هو نوافذ المعرفة
التي يستخدمها العقل في رؤية العالم والاشياء من حول الانسان . والقلب
وثيق الصلة بالعقل وكأنهما شئ واحد فقد نسب الله تعالى الفقه أى الفهم
الى القلب . وكما يتضح أيضا في قوله تعالى « ان في خلق السموات والأرض
واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الالباب » آل عمران : ١٩٠ . فاللب هو
القلب ، ويعنى هنا العقل . وصلة العقل بالقلب تبدو من أن القلب هو موطن
المشاعر والعواطف . وهذه تمثل قوة دافعة في سلوك الانسان ، بل أحيانا تسيطر
على سلوك الانسان كله . ومن ثم فهذه القوة بحاجة الى ضابط يحكمها ،
ومعيار يضبطها ، وفكر يوجهها ، وهذا ما يقوم به العقل فالعقل هو السلطة
الداخلية التي تراقب رغبات الانسان وسلوكه ، أو هو الضمير الذى يحقق
التوازن بين الداخل والخارج . ويدعم هذا ما يطلق على العقل من أسماء مختلفة
فهو « العقل » مأخوذ من مادة « عقيل » البعير أى كفها عن السير . وهو « النبی »
جمع نبيه أى الذى ينهى الانسان عن السلوك الذميم . وهو « الحجر » كما
قال تعالى « هل فى ذلك قسم لذى حجر » أى الذى يحول بين الانسان وبين
السلوك المحظور .

ورغم أن العقل والقلب قد يختلفان ، فيجمع القلب ، ويقوم العقل بكبح

جماعه الا انهما في الانسان السوى أو في المسلم الكامل يتفقان ويتحدان فيما بينهما . فما يشعر به القلب يجد له سندا من العقل . واذا كان الايمان له حرارة في القلب بحيث يصير منبع المشاعر فان العقل هو السبيل الى هذا الايمان فضمير المؤمن يلتقى مع شعوره ، وطاعة المؤمن تلتقى مع حبه لله .

وهكذا فالعقل معرفة وعلم والقلب رغبة وإرادة والجسم قدرة وتنفيذ .
والجميع يعمل في اتساق كامل ، وتعاون تام .

ويقترّب من هذا ما يذهب اليه علم النفس من تقسيم الذات الى « الهو والأنا والأنا الأعلى فالهو » يقابله الجسم ، والأنا يقابله القلب ، والأنا الأعلى يقابله العقل .

والقلب والعقل يكونان ما يعرف في علم النفس بمفهوم الذات ، فهو يعنى « تكويننا معرفيا منظما موحدا ومتعلما للمدركات الشعورية والتصورات والتقييمات الخاصة بالذات » . وهو أساس تنظيم السلوك قال تعالى « كل نفس بما كسبت رهينة » والذات هي ما يعبر عنها القرآن الكريم بالنفس الملهمة « فآلهمها فجورها وتقواها » ، واللّوامة « ولا أقسم بالنفس اللوامة » والبصيرة « بل الانسان على نفسه بصيرة » ، والأمانة بالسوء « ان النفس لأمانة بالسوء » (٣٣) .

فالطبيعة الانسانية كما يوضحها القرآن الكريم هي جسم وقلب وعقل أو جسم وروح متكاملان . والقلب والعقل مظهران للروح ، والاسلام يصرف الانسان عن البحث في حقيقة الروح نفسها « قل الروح من أمر ربي ، وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ، فهذه المسألة تعد أعضل مسائل العلم والفلسفة منذ فكر الانسان في حقائق الاشياء « ومن معجزات القرآن أنه وضعها الوضع الصحيح من الفلسفة والعلم ، وجعلها أعضل المضلات التي يتساءل عنها الناس بغير استثناء . ويزيد في تقدير هذه العجزة أن القرآن لم يستكثر على الفكر الانساني أن يخوض في المسألة الالهية ، وأن يصل الى الايمان بالله

(٣٣) حامد عبد السلام زهران ، « مفهوم الذات والسلوك التربوي لتعلمين بين الواقع والمثالية » مجلة كلية التربية ، السنة الثانية ، العدد الثالث ، جمادى الثانية ١٣٩٦ هـ - يونيو ١٩٧٦ م ، ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

عن طريق البحث والاستدلال والنظر في آيات الخلق وعجائب الطبيعة ، فالتعقل يهتدى الى وجود الله من النظر في وجود الاشياء ولكنه لا يهتدى الى حقيقة الروح من هذا الطريق (٣٤) .

وقد حاول بعض الفلاسفة المسلمين أن يحدوا الطبيعة الانسانية ، ويقفوا على عناصرها ومكوناتها ومنهم الكندي ، الفارابي ، ابن سينا ، اخوان انصبا ، الغزالي ، ابن رشيث ، فخر الدين الرازي .

ويمكن القول بأن الفلسفة الاسلامية في تناولها لتكوين الطبيعة الانسانية كانت متأثرة باتجاهين اتجاه أفلاطون ، واتجاه أرسطو . وهذا أمر طبيعي بعد أن أناد المفكرون الاسلاميون ، والفكر العربي عموما من الترجمات المختلفة عن اليونانية ، ومما كان له اثره في تكوين الفكر العربي ، ولم يعد هذا مجرد فرض بل صار من الحقائق الثابتة .

● رأى الكندي :

والكندي (١٨٥ - ٢٥٢ هـ) يعرف النفس فيقول « ان النفس بسيطة ذات شرف وكمال ، عظيمة الشأن جوهرها من جوهر الباري عز وجل لقياس ضياء الشمس من الشمس .. وهى منفردة عن هذا الجسم مباينة له .. وأن جوهرها جوهر الهى روحانى ، بما يرى من شرف طباعها ، ومضادتها لما يعرض للبدن من الشهوات والغضب .. وهذه النفس التى هى من نور البارى اذا هى فارقت البدن علمت كل ما فى العالم ، ولم يخف عليها خافية .. وصارت فى عالم العقل فوق الفلك .. وصارت تنظر بنور البارى .. وهذه النفس لا تنام البتة ، لأنها فى وقت النوم تترك استعمال الحواس ، وتبقى محصورة ليست بمجردة على حدثها ، وتعلم كل ما فى العوالم وكل ظاهر وخفى » (٣٥) .

ويتأثر الكندي بتقسيم أفلاطون فيقسم الى ثلاث قوى : القوة الشهوانية

(٣٤) عباسى محمود العقاد ، الفلسفة القرآنية ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٧ م ، ص ١١٢ .
(٣٥) محمد عبد الباقى أبو ريده ، رسائل الكندي الفلسفية ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٠ م ، ص ص ٢٧٣ - ٢٧٩ .

التي شبهها أفلاطون بالخنزير ، والقوة الغضبية التي شبهها بالكلب ، والقوة العقلية التي شبهها بالملك .

❶ رأى الفارابي :

والفارابي (٢٥٧ - ٣٣٩ هـ) يقسم النفس الانسانية الى خمس قوى :
القوة العذية ، القوة الحاسة ، القوة الخزوعية ، القوة المتخيلة ، القوة الناطقة .

والمختص بالقوة الناذية هي تلك القوة التي تحفظ على الكائن الحي حياته ، ويشترك في هذه القوة مع الانسان النبات والحيوان .

والقوة الخزوعية هي التي يطلب بها الانسان الشيء أو يهرب منه ، ويشتاقه أو يكرهه ، ويؤثره أو يتجنبه ، وبها يكون البغض والمحبة والصدقة والعداوة والخوف والامن والغضب والرضا والشهوة والرحمة عوارض النفس .

والقوة الحاسة : هي القوة التي تدرك بها المحسوسات والطعوم والروائح والأصوات والألوان والحواس الخمس هي الطريق التي تستفيد منها النفس معرفتها بالاشياء الخارجية .

والقوة المتخيلة هي التي تحفظ رسوم المحسوسات بعد غيبتها عن الحس ، وتركب بعضها الى بعض وتفصل بعضها عن بعض في اليقظة والنوم ، تركيبات وتقسيمات بعضها صادق ، وبعضها كاذب ، ولها مع ذلك ادراك النافع والضار ، واللذيق والمؤذى ، دون القبح من الافعال والاخلاق . وعلى وسط بين القوة الحاسة والقوة الناطقة .

والقوة الناطقة وهي خاصة بالانسان ، وتمكنه من ادراك المعقولات ، والتمييز بين الجميل والقبيح واكتساب الصناعات والعلوم . وهي تنقسم الى قسمين :
عملية يقوم باستنباط ما يجب فعله من الافعال الانسانية . وعلمية او نظرية يتم به جوهر النفس ويصير جوهرها عقليا بالفعل (٣٦) .

والفارابي مع أنه يقول بهذه القوى الا أنه يؤكد وحدة النفس فهي على

(٣٦) جميل صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية ، ط ١ ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٣ م ، ص ص ١٥٥ - ١٥٨ .

كثرة قوامها واختلاف أجزائها لا تؤلف الانفسا واحدة ، فكل قوة من هذه القوى تقوم على التي تسبقها •

● رأى ابن سينا :

وابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ) يقول الانسان مركب من مادة وصورة
كغيره من الكائنات ، فالمادة هي البدن ، والصورة هي النفس • ومن ثم فالنفس
صورة للبدن أو على حد تعبيره عن النفسي انها كمال أول لجسم طبيعي آلى •
وقد أخذ ابن سينا هذا التعريف من كتاب النفس لأرسطو وهو ترجمة لتعريف
أرسطو فلفظ « كمال » ترجمة دقيقة لكلمة « أنتليشيا » (٣٧) •

وقد عنى ابن سينا عناية بالغة بقوى النفس وتحليلها وتصنيفها
وترتيبها ترتيبا تصاعديا، من أدنى الى أعلى بحيث يخدم أبنائها أعلاها ،
ويرأس كل منها ، قبله ، فابن سينا يستخدم المنهج التحليلي والمنهج
التركيبى (٣٨) •

وقوى النفس هي ما يسميها ابن سينا السر ، أما العلن فهو الجسم
بأعضائه المختلفة • ويرى ابن سينا أن النفس قد هبطت الى الجسم من المحل
الأرفع على حد تعبير « سينيته » المشهورة « هبطت اليك من المحل الأرفع » •
والنفس عند ابن سينا ثلاث : نفس نباتية ، ونفس حيوانية ، ونفس
انسانية •

والنفس النباتية تنقسم الى ثلاث قوى : قوى غذائية تحيل الجسم الآخر
الى شاكلة الجسم الذى هي فيه • وقوة منمية تضيف الى الجسم زيادة في
أقطاره طولاً وعرضاً • وقوة مولدة تتأخذ من الجسم الذى هي فيه جزءاً هو شبيه
له بالقوة فتفعل فيه بالاستمداد أجسام أخرى تتشبه به من التخلق والتمزيق •
والنفس الحيوانية ، وهى تختص بجذب النافع ودفع الضار وتنقسم

(٣٧) ابراهيم مذكور ، فى الفلسفة الاسلامية منهج وتطبيقه ، ط ٢ ،
القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨ م ، ص ١٥٧ •
(٣٨) محمد عثمان نجاتى ، الادراك الحسى عند ابن سينا ، ط ٢ ، القاهرة ،
دار المعارف ، ١٩٦١ ، ص ٣٢ •

الى قسمين : قوة محرّكة وقوة مدركة ، والمحرّكة لها قوتان : باعثة ، فاعلة .
والباعثة هي القوة الزوعية والشوقية ولها شعبتان قوة شهوانية وقوة غضبية .
وإفاعلة هي القوة التي تنبعث في الاعصاب والعضلات فتجذب أو ترخي .
والقوة المدركة تنقسم الى ادراك من الخارج أو ادراك من الداخل . والادراك
من الخارج يشمل الحواس الخمس : قوة البصر ، قوة السمع ، قوة الشم ،
قوة الذوق ، قوة اللمس . والقوة الاخيرة تتضمن أربع قوى : قوة حاكمة في
التضاد الذي بين الحار والبارد . وقوة حاكمة في التضاد الذي بين اليابس
والرطب ، وقوة حاكمة في التضاد الذي بين الصلب واللين ، وقوة حاكمة في
التضاد الذي بين الأملس والأخشن .

والادراك من الداخل ، أما أن يكون ادراكا لصور المحسوسات ، أو ادراكا
لمعانيها . والأول تسهم فيه الحواس مع الادراك الداخلي . والثاني ادراك
عقلي ويقتصر فيه على العقل وحده والفرق بين الادراكين كالفرق بين ادراك
النشأة لذئب ، وادراكها لعداوتها ، ففي الحالة الأولى تدرك شكل الذئب وهيئته
ولونه ، وفي الثانية تدرك معنى العداوة التي يحملها الذئب لها في نفسه (٣٩) .
وللادراك من الداخل قوى ، وهي الحواس الخمس الباطنية : الحس المشترك ،
والمصورة ، والمتخيلة ، والوهم ، والذاكرة .

والنفس الانسانية أو النفس الناطقة تنقسم الى قوة عاملة وقوة عالمة ،
وكل واحدة منهما تسمى عقلا . والقوة العاملة هي مبدأ محرك لبدن الانسان
الى الأفعال الجزئية الخاصة بالروية فيما ينبغي أن يفعل ويترك . وبه
تتعلق سياسة البدن . واليه تنتسب الأخلاق . والقوة العالمة وتسمى العقل
النظري ، ووظيفتها ادراك الصور الكلية المجردة عن المادة . وللعقل النظري
درجات فهو إما أن يكون كالقوة المطلقة التي لم تقبل بعد شيئا من الكمال
ويسمى العقل الهيولاني . وإذا حصلت في العقل المعقولات الأولى وهي
البديهيات مثل الكل أعظم من الجزء ، والتي يتوصل بها الى المعقولات الثانية
سمى العقل « عقلا بالملكة » . وإذا حصلت المعقولات الثانية بدون مطالعة

(٣٩) عبد الرحمن ع بد الرحمن النقيب ، الآراء التربوية في كتابات ابن
سينا ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة عين شمس ، كلية التربية ،
١٩٦٩ م ، ٦٣ - ٧٨ .

ومراجعة إليها بالفعل سمي « عقلا بالفعل » وإذا طالعتها بالفعل وعقلها سمي « عقلا مستقادا » (٤٠) .

وعن علاقة النفس بالجسد يرى ابن سينا أن الانسان مركب من المادة والصورة فالمادة هي الجسد بأعضائه المختلفة ، والصورة هي النفس بقواها المختلفة يقول ابن سينا « كل جسم مركب من هيولى وصورة » والصورة هي التي بها الفعل ، والمادة هي التي بها الانفعال ، والجسم الحي يخالف غير الحي بنفسه لايبدنه ، فالنفس - اذا - صورة (٤١) .

● رأى اخوان الصفا :

أما اخوان الصفا وهم جماعة أحاطت نفسها بستار من السرية التامة والتكتم ، وترجع رسائلهم التي ألفوها الى القرن العاشر الميلادي - الرابع الهجري . ورغم هذه السرية فان بعض كتب التاريخ ذكرت بعضا منهم مثل أبو سليمان البستي المعروف بالمقدس . وعلى بن هارون الزنجاني .

ولم يؤلف بين أعضاء هذه الجماعة المذهب الشيعي فحسب ، بل كانت هذه الجماعة تمثل نزعة فكرية خاصة إذ يغلب عليها طابع المذهب الاساعيلي (٤٢) .

وقد هدف اخوان الصفا من وراء مذهبهم هذا الى هدفين : هدف سياسي وهدف ديني ، أي كانوا يريدون التوفيق بين الدين والفلسفة ، وكانت حاجتهم الى ذلك حاجة البيئة والوقت والزمن فقد انضوى تحت لواء الاسلام العديد من الأجناس والشعوب من ذوى الديانات المختلفة ، فكان لابد من المجتمع والتوفيق بين الأشعات المختلفة ، أي التوفيق بين هذه الآراء المختلفة يونانية

(٤٠) محد عثمان نجاتي ، الادراك الحسى عند ابن سينا ، (مرجع سابق) ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٤١) ابن سينا ، أحوال النفس ، نشر أحمد فؤاد الاهواني ، القاهرة ، دار لحياء الكتب العربية ١٣٧١ هـ ص ص ١٠٨ - ١١٠ ، وابن سينا ، النجاة ، القاهرة ، البابى الطبى ، ١٣٥٧ هـ ، ص ١٨٩ وما بعدها .

(٤٢) هنرى كوربان ، (ترجمة نصير مروة ، حسن قبیس) ، تاريخ الفلسفة الاسلامية ، ط ١ ، لبنان - بيروت ، ١٩٦٦ م ، ص ٢١٠ .

كانت أم فارسية أم هندية أم مسيحية تحت لواء الاسلام (٤٣) .

وقد وجهت دعوتهم للذين لديهم استعداد وتقبل لفهم ما وراء الشريعة .
فالشريعة لا تنجح الا في شفاء النفوس المريضة . أما من يدين بدعوتهم فلا بد
أن يحيا على شاكلة الله . وبهذا فان فلسفتهم التعليمية كانت في عداد فلسفة
النبوة .

ورسائلهم اثني وعاما التراث تشمل جميع فروع المعرفة ، وتعطى لجهود
الجنس البشرى معناها وحققها . ورسائلهم تتألف من اثنتين وخمسين رسالة .
وتنقسم الى أربعة اقسام : الرسائل التعليمية الرياضية والمنطقية وهي
أربع عشرة رسالة . والرسالة الطبيعية بما فيها علم النفس وهي سبع عشرة
رسالة . والرسائل الماورائية وهي عشر رسائل . والرسائل الناموسية الالهية
الغلكية وهي احدى عشرة رسالة . ومن حيث نظام اخوان الصفا فهو يحتوى
على أربع مراتب وفقا للاستعداد الروحي :

١ - الطبقة الاولى تتألف من شبان تتراوح أعمارهم بين خمس عشرة وثلاثين
عاما ، ويجب أن تنشأ نفوسهم على الفطرة .

٢ - الطبقة الثانية وتتألف من رجال تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين
عاما ، هؤلاء تفتح لهم أبواب الحكمة الدنيوية ، وينلقون معرفة الاشياء
بطريق الرمز .

٣ - الطبقة الثالثة وهي تتألف من رجال يزيد عمرهم على الأربعين بحيث
يصبح بوسع المستجيب أن يطالع على اسرار الحقيقة الروحية المستترة
وراء الكلام الظاهر من الشريعة .

٤ - الطبقة الرابعة وهي تتألف من رجال يزيد عمرهم على الخمسين وهؤلاء

(٤٣) احمد فؤاد الاهواني ، معانى الفلسفة ، ط ١ ، القاهرة ، دار احياء
الكتب العربية ، ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م ، ص ٤٥ .

تتكشف لهم الحقيقة الروحية الباطنية ، ويصيرون أشبه بالملأئكة
المغربين (٤٤) .

واخوان الصفا في تناولهم لتكوين الطبيعة الانسانية يقسمون الانسان
الى جسم ونفس ، أى روح وبدن ، ويرون أن الجوهر الحقيقى للانسان هو
النفس أو الروح ، فالنفس حاملة للجسم ، وليس العكس . يقول اخوان الصفا
« واعلم أنه (الجسم) محمول لاحامل - كما ظن كثير ممن لاعلم عندهم ولا معرفة
معهم أن الجسم حامل النفس ، وأنها زبدته وصفوة طبائعه ، وأنها تقوى
بقوة الغذاء وتضعف بضعفه . وليس الأمر على ماظنوا ، ولا القضية كما
تواهموا . وإنما النفس حاملة للجسم وأعراضه ، وهى الذاهبة به فى الجهات
التي يجب لها ، (٤٥) .

ويقسمون قوى النفس الى :

١ - قوى حساسية . ويقصدون بها الحواس الخمس : السمع والبصر والشم
والذوق واللمس .

٢ - قوى روحانية . وهى تتألف من المتخيلة والمفكرة والمحافظة ، والناطقة
والصانعة .

٣ - قوى طبيعية . وهى تشمل النباتية والحيوانية والناطقة . وهذه
القوى ليست متباينة . بل هى متضامة متنفقة ، تصدر من أصل واحد
كالأغصان التى تنبت من الشجرة (٤٦) .

والانسان قد خلق متوجها الى الله ، ، والاجساد ان هى الا أعراف يقف

(٤٤) هنرى كوريان ، تاريخ الفلسفة الاسلامية (مرجع سابق) ، ص
٢١١ ، ٢١٢ .

(٤٥) جبور عبد النور ، اخوان الصفا ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦١ م ،
ص ١١٤ .

(٤٦) المرجع السابق ، ص ص ٤٣ - ٤٦ .

عليها الناس انتظارا للخلاص فالانسان مكون من جسد فان ، ونفس خالدة •
ومع أن الجسم فان الا أن النفس لايمكن أن تستغنى عن الجسد فبه تستكمل
فضائلها فالجسم هو واسطتها الى تلقى العلوم بالحس واللمس ، ثم تجريدها
الى صور كلية مركبة • وهذا هو نهاية المطاف للنفس • والجسد محتاج للنفس
فلولاها لما كان يقال جسم ولما كان الجسد فانيا فان على الانسان أن يوجهه
عنايته للنفس (٤٧) •

* رأى الغزالي :

يرى الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥ هـ) أن الانسان يحتل مكانا وسطا بين
الملائكة والحيوان ويقول ان الله خلق آدم على صورته ، وفقا للحديث الشريف
« اذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه فان الله خلق آدم على صورته » (٤٨) •
والانسان في رأى الغزالي صورة مصغرة للعالم الأكبر ، وهو يتكون من
جسم وروح والجسم مركب من المادة والصورة ، وهو خاضع لعوامل التغير
والفساد ، أما الروح فهي نورانية الهية ترجع الى عالم الأمر • ولا تتغير أو
تتفنى وعالم الأمر أسمى من عالم الشهادة ، والروح بالتالى أسمى من الجسد •
ويطلع الجسد على عالم الشهادة بحواسه ، أما الروح فهي تدرك بالبصيرة •
والروح لا تتغير الا اذا اتصلت بالجسد • وهى في جوهرها نقية توافقة للعالم
طالبة له • واذا أمكن لها أن تقهر الجسد وتتغلب على شهواته استطاعت أن
تصل الى الكمال والسعادة في الدنيا والآخرة (٤٩) •

ويذكر الغزالي أن هناك ألفاظا أربعة مترادفة على النفس وهى : النفس،

(٤٧) نادية يوسف ابراهيم ، فلسفة التربية عند اخوان الصفا ، رسالة
رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة عين شمس ، كلية التربية ، ١٩٧٣ م،
ص ١٢٧ ومابعدها •

(٤٨) مسلم ، صحيح مسلم ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ،
١٢٢٧ هـ •

(٤٩) محمد نبيل نوفل ، وأبو حامد الغزالي ، فلسفته وآراؤه في التربية
والتعليم ، رسالة ماجستير (غير منشورة) جامعة عين شمس ، كلية التربية ،
١٩٦٧ م ، ص ٩٦ ومابعدها •

والقلب ، والروح ، والعقل • فالنفس قد يراد بها المعنى الجامع للصفات المذمومة
وهى انقوى الحيوانية • وقد يراد بها حقيقة الآدمى وذاته • والقلب قد
يطلق ويراد به اللحم انصوبرى الشكل المودع فى جوف الإنسان من جانب
اليسار • وقد يطلق ويراد به الروح الانسانى المتحمل لأمانة الله المتحلى
بالمعرفة المذكور فيه العلم بالفطرة الناطق بالتوحيد • والروح قد يطلق ويراد
به البخار اللطيف الذى يصعد من منهج القلب ويتصاعد الى الدماغ وقد يطلق
ويراد به الروح الذى فى مقابلة جميع الملائكة وهو روح القدس وقد يطلق ويراد
به القرآن •

والعقل قد يطلق ويراد به العقل الأول ، كما يراد به النفس الانسانية ،
كما قد يراد به صفة النفس (٥٠) •

والغزالى يقسم النفس الى انواع اربعة : نفس نباتية ، نفس حيوانية ،
ونفس انسانية ، نفس فلكية • ويعرف النفس النباتية بأنها كمال أول
لجسم طبيعى آلى من جهة ما يخذى وينمو ويولد المثل • ويعرف النفس
الحيوانية بأنها كمال أول لجسم طبيعى آلى من جهة ما يدرك الجزئيات
ويتحرك بالارادة • ويعرف النفس الانسانية بأنها كمال أول لجسم طبيعى
الى من جهة ما يفعل الاماغيل بالاختيار العقلى • والاستنباط بالرائى • ومن
جهة ما يدرك الأمور الكثيرة • أو هى كمال أول للجسم ، مدرك له بالاختيار
عن مبدأ نظفى أو عقلى ، بأفعل أو بالقوة (٥١) •

والغزالى فى تطييع لقوى النفس الانسانية متأثر بابن سينا ، فهو يقسم
قوى النفس الى : قوى حيوانية ، وقوى انسانية • والقوى الحيوانية تنقسم
الى محركه ومدركة ، والمحركه أما أن تكون باعثة على الفعل بمعنى أنها تجذب

(٥٠) الغزالى ، معارج القدس ، القاهرة ، مكتبة الجندى ، ١٩٦٨ م ،
ص ص ١٩ - ٢٤ •

(٥١) الغزالى ، (تحقيق سليمان دينا) تهافت الفلاسفة ، دار المعارف
بصر ، ١٩٦١ م ، ص ٢٩٠ •

النافع وتدفع الضر (الشهوة والغضب) • والفاعلة هي قوة تنبعث في العضلات والمدركة هي قوى مدركة من الظاهر وقوى مدركة من الباطن • والتوى الانسانية تنقسم الى قوة عاملة ، وقوة عالمة ، وكل منهما تسمى عقلا (٥٢) •

وفي بيان العلاقة بين هذه القوى يذكر الغزالي ان القدرة على المعرفة عند الانسان موجودة في القلب • والخبرة والمعرفة التي يكتسبها القلب يمكن ان تسمى بالعقل • وحالة العقل في انسان معين تتوقف على نوع العلاقة التي تقوم بين القلب وبين الشهوة والغضب • ويمثل العقل وجميع علاقاته الدالة الفعلية للروح في الجسد • كما يمثل الاتجاه في نموها ، وهذا مايعبر عنه عادة بالنفس (٥٣) •

وعن الغرائز يقول الغزالي ان الانسان قد ركبت فيه الغرائز ، ولكل غريزة لذة ، فغريزة الغضب خلقت للتشفى ، ولذتها في الغلبة • والروح مكانها القلب ، وفي القلب غريزة تسمى النور الالهي ، وقد تسمى العقل أو البصيرة الباطنية ، وقد تسمى نور الايمان واليقين •

والغزالي يرتقى من مستوى التقسيم الثنائي للطبيعة الانسانية الى مستوى التكامل بين جميع اجزائها ، بهدف الوصول الى تحقيق المثل الاعلى للانسان • وهذا التكامل والانسجام لايتحقق الا في ظل سيطرة الروح • وهذه السيطرة هي الخطوة الاولى نحو اكتساب اليقين (٥٤) •

✽ رأى ابن رشد :

يعرف ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ) الطبيعة الانسانية فيذكر ان النفس

(٥٢) الغزالي ، معارج القدس ، (مرجع سابق) ص ص ٤٣ - ٥٦ ، سليما دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ م ، ص ص ٢٥٧ - ٢٦٩ •

(٥٣) على عيسى عثمان (تعريب خيرى حماد) الانسان عند الغزالي ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٤ م ، ص ١٢٦ •

(٥٤) محمد لبيب النجيجي ، في الفكر التربوي ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٠ م ، ص ص ٨٦ - ٩١ •

كمال أول لجسم طبيعي آلى • وعلى غرار أرسطو يقسم قوى النفس الى :
قوة نباتية ، وقوة حساسة ، وقوة متخيلة ، وقوة نزوعية ، وقوة ناطقة •
ويقسم النفس الناطقة الى : قوة نظرية ، وتسمى العقل النظرى ، وقوة عملية ،
وتسمى العقل العملى (٥٥) •

✽ رأى الرازى :

يقسم الامام فخر الدين محمد بن عمر الرازى (ت ٦٠٦ هـ) المخلوقات
الى أربعة : الأول ماله عقل وحكمة وليس له طبيعة ولا شهوة ، وهم
الملائكة • والثانى ليس له عقل ولا حكمة ، وله طبيعة وشهوة ، وهو سائر
الحيوانات • والثالث ليس له عقل أو حكمة ، ولا طبيعة وشهوة وهو الجماد •
والرابع له عقل وحكمة وطبيعة وشهوة وهو الانسان •

ويذكر الرازى ان النفس البشرية شىء واحد ، وليس كلا مركبا من
أشياء • والنفس البشرية هى ما يشار إليها بلفظ « أنا » • ويقصد بها النفس
المبصرة والسامعة والنشامة والذائقة واللامسة وهى الموصوفة بعينها بالتخيل
والفكر والتذكر وتدبير البدن واصلاحه وهى ليست جملة البدن أو جزءا منه •
والنفس شىء غير الجسد •

ويقسم الرازى قوى النفس الانسانية الى ثلاث قوى : قوى نباتية ،
وقوى حيوانية ، وتشمل القوى المحركة والحركة ، وقوى انسانية وهى نظرية
وعملية (٥٦) •

والملاحظ أن آراء هؤلاء الفلاسفة يبدو فيها التأثير الشديد بالفلسفة
اليونانية وخاصة فلسفة افلاطون وأرسطو •

(٥٥) جميل صليبي ، تاريخ الفلسفة العربية (مرجع سابق) ص ص
٤٩١ - ٤٩٤ •

(٥٦) الامام فخر الدين بن محمد بن عمر الرازى (تحقيق محمد صغير
حسن المعصومى) ، كتاب النفس والروح وشرح قواعدها ، القاهرة ، مكتبة
المكتبى ، ١٩٦٨ م ، ص ٧٧ •

✽ رأى محمد عبده :

اما الامام محمد عبده المفكر الاسلامى الحديث (١٨٤٩ - ١٩٠٥ م) فيرى ان الله قد منح الانسان الحواس التى يدرك بها ما تحتاج اليه نفسه فى حفظها وتوفير منافعها . كما جعل له من العقل ما يميز به بين الحق والباطل ، والضار والنافع . وزوده بالوجدان لادراك ما يحدث فى النفس من ميول ورغبات . والانسان بحاجة للعقل والوجدان ، فكلاهما يعين الآخر . والعلم الصحيح مقوم للوجدان . والوجدان السليم من أشد أعوان العلم . ويذكر ان حاجات الانسان وقواه المدركة تختلف باختلاف الأفراد والشعوب ، نظرا لاختلاف الجنس والجو وأحوال المعيشة (٥٧) .

ويذكر ان الله وهب الانسان ثلاث قوى تميز بها عن الحيوان هي : الذاكرة ، والمخيلة ، والمدركة . فالذاكرة تستشير صور الماضى . والمخيلة تجسم من المذكور وما يحيط به من الاحوال حتى يصير كأنه محسوس ، ثم تنشئ له مثال لذة او ألم فى المستقبل يشبه ما كان بالماضى ، فيلجأ الانسان للفكر لتدبير الوسيلة (٥٨) .

فالامام محمد عبده يقول بالبدن والروح ، ويرى أنهما متكاملان ، ومن خللها تتكون الطبيعة الانسانية بعناصرها الثلاثة : الحواس ، والعقل ، والوجدان .

✽ رأى العقاد :

يرى العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤ م) ان الروح غير النفس ، فالروح اقرب الى الحياة الباقية وأخفى عن المارك الحسية . وعلى الجانب الذى اختص الله بعلمه . أم النفس فهي اقرب الى الطبع او القوة الحيوية التى تشمل الارادة ،

(٥٧) تشارلس آدمس ، الاسلام والتجديد فى مصر (مرجع سابق) ص ١٤١ ، ١٤٢ .
(٥٨) الامام محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ط ١٥ ، القاهرة ، دار المنار ، ١٣٧٢ هـ ، ص ٧٤ .

والغريزة • وتعمل واعييه وغير واعييه • وهى تأتى فى مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التى يدركها النوم ، ويزهقها القتل ، وتحس النعمة والعذاب ، وتلهم الفجور والتقوى ، وتحاسب على ماتعمل من حسنة أو سيئة •

والذات الانسانية تشمل النفس والروح والعقل • وكل منها تدل على الذات الانسانية فى حالة من حالاتها (٥٩) •

ننتقل بعد هذا الى الحديث عن الجانب الثانى من جوانب الطبيعة الانسانية وهو :

٢ - الوراثة والبيئة فى الطبيعة الانسانية :

والسؤال هنا : هل الطبيعة الانسانية تتأثر بالوراثة أو بالبيئة أو بهما معا ؟ •

وقد قام الكثير من العلماء والباحثين فى مجال علم النفس ، وعلم الوراثة ، وعلم الاجتماع بدراسات عديدة ، وتجارب مختلفة ، بعضها يقوم على التفسير النظرى ، وبعضها الآخر يعتمد على التفسير التجريبى •

ورغم كثرة الدراسات ووفرتها ، فما تزال الاجابة اليقينية عن هذا السؤال مشكلة بدأت مع بداية ظهور هذه الدراسات • فهناك من يرجع السلوك الانسانى لعامل الوراثة وهناك من يرجعها للبيئة ، وهناك من يرجعها اليهما معا •

ومن أبرز الدراسات التى أخذت جانب الوراثة ، تلك النظرية الغرضية التى وضعها « وليام مكجوجل » والتى أكد فيها دور الوراثة ، فعزا سلوك الانسان لمجموعة من الغرائز التى يولد الانسان مزودا بها •

وقد وضع « مكجوجل » فى ١٩١٠ م قائمة بأحدى عشرة غريزة • ثم

(٥٩) عباس محمود العقاد ، الانسان فى القرآن الكريم ، القاهرة ، دار الهلال ، ص ٣٤ ، ٣٢ •

زادها في ١٩٢٣ م الى أربع عشرة غريزة ، وهى : غريزة الوالدية ، والمقاتلة ، والاستطلاع ، الخلاص (الهرب) ، البحث عن الطعام ، الخفور ، الاستغاثة ، والغريزة الجنسية ، والخفوع ، والتسلط ، والتملك ، والحل والتركيب ، والغريزة الاجتماعية ، والبحث عن الراحة ، والضحك ، والنوم ، والتنقل ، والعطس ، والكحة (٦٠) .

ويميل معظم علماء الاجتماع الى القول بانتقال الصفات المكتسبة تحت تأثير البيئة الجغرافية والاجتماعية ومطالب الحياة عن طريق الوراثة .

ويذكر بعض مذهب أن الوراثة هى كل شىء فى حياة المجتمع والانسان وهى تصب الفرد صبا فى قوائها الخاصة من جميع نواحيه الجسمية والعقلية والخلقية . وهى تفرض عليه أوضاعا خاصة ، لا يجد الفرد بدا من الخضوع لها ، فيتصرف بحكم ماورثه من قدرات واستعدادات ، ويتشكل سلوكه الاجتماعى فى ضوء ذلك . وبذا تكون الحياة الاجتماعية صورة من الاستعدادات الموروثة التى انتقلت من الاصول الى الفروع ولا يملك المجتمع ازاءها تعديلا أو تبديلا (٦١) .

✽ أما أبرز الدراسات التى أخذت بالبيئة ، فهى تلك الدراسة التى قام بها « جون واطس » رائد السلوكيين ، فقد ذكر أن البيئة قادرة على تشكيل الانسان ، بما فى ذلك قدراته العقلية وبالإضافة الى هذا ، هناك من علماء النفس من ينادى اليوم باستحالة تصور انسان بلا وراثة ولا بيئة ، بمعنى أن شخصية الانسان هى محصلة الوراثة والبيئة معا . وسبب هذا الخلاف كما يرى « سارجنت ووليامسون » هو عدم وضوح مفهوم كل من الوراثة

(٦٠) محمد عماد الدين اسماعيل ، المنهج العلمى وتفسير السلوك ، ط ٢ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ م ، ص ١٠٥ .

(٦١) مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، القاهرة ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ م ، ص ١٧٠ .

والبيئة (٦٢) •

فالبعض فسر الوراثة غيبيا نظريا ، فقال بالغرائز أو بالدافع الفطرى ، وحاول أن يضع له خصائص تميزه عن الدافع المكتسب ، فذكر من علاماته ، ظهوره منذ الميلاد أو من سن مبكرة ، وأنه عام مشترك بين أفراد النوع الواحد مهما اختلفت بنيلياتهم ، وأن الانسان يشترك فيه مع الحيوانات العليا مثل دوافع العطش والنوم ، وأن هدفه الطبيعي ثابت (٦٣) •

وقد وجه النقد لهذا التفسير ، ورمى بالعقم والجمود ، فهو لايسمح بالتغير أو الترقى ، ويجعل السلوك الانسانى سلوكا ثابتا جامدا كسلوك الحيوان • والقول بالغرائز هو وليد ظروف سياسية ، هدفت الى الإبقاء على الوضع الراهن ، بحيث يبرر حكم الاقلية الصفوة التى تجرى دماء الملك فى عروقها • فهذا التفسير يجعل مصير الانسان مصيرا محتوما لايقبل التغير •

وقد حاول البعض أن يفسر مفهوم الوراثة تفسيرا بيولوجيا • فالخلية هى وحدة الكائنات الحية ، وهى تتكون من مادة غير متجانسة التركيب ، وهى الجسر الوحيد الذى تعبده الصفات المتوارثة من الاجيال السابقة الى الاجيال اللاحقة (٦٤) •

ويقال أن نواة الخلية تحتوى على « كروموزيات » وهذه تحتوى على « الجينات » وهى التى تحمل الصفات الوراثية • ويقال ان المادة الوراثية فى الخلية تحتوى بشكل كامل على جميع عناصر الجسم وكل وحدة منها تختص بجزء معين من الجسم ، فبعض الجينات يؤثر على لون العين ، والبعض الآخر

(٦٢) أحمد عبد العزيز سلامة ، عبد السلام عبد الغفار ، علم النفس لاجتماعى ، القاهرة ، دار النهضة العربية (د ت ٠) ، ص ص ٥٩ - ٦١ •
(٦٣) أحمد عزت راجع ، أصول علم النفس ، ط ٨ ، الاسكندرية ، المكتب المصرى الحديث ، ١٩٧٠ م ، ص ٨٥ ، ٨٦ •
(٦٤) عبد الحليم منتصر ، الوراثة والجنس ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، ص ٨ •

يؤثر على لون البشرة ، وغيرها على شكل الجسم أو حجمه (٦٥) .

وقد حاول « مندل » أو يؤكد هذا نتجاريه على النبات والحيوان ، وقال بقانونية الشهيدين وهما انفصال الصفات ، ثم تنظيمها واقترانها ثانية ، فمثلا لو تزوج رجل ذو عيون زرقاء بامرأة ذات عيون زرقاء ، فان عيون أولادهما ستكون زرقاء . وإذا تزوج رجل ذو عيون عسلية بامرأة ذات زرقاء فان من أولادهما من تكون عيون زرقاء ، ومنهم من تكون عيون عسلية . وقد استنتج « مندل » أن هناك صفات تورث ، وأنه لابد وأن تكون العوامل الوراثية في الخلايا التناسلية (٦٦) .

✽ ومن الدراسات التجريبية في هذا الصدد دراسة التوائم المتماثلة التي قام بها « تيومان » و « فريمان » و « هولزنجر » (سنة ١٩٣٧ م) فقد قام هؤلاء العلماء بدراسة خمسين زوجا من التوائم المتشابهة ، وخمسين زوجا من التوائم المتماثلة ، وترك كل زوج منهم بحيث يعيش كل فرد في الزوج بعيدا عن مثيله ، ثم أجريت المقارنات بينهم (كل زوج على حدة) بعد وصول الجميع لمرحلة النضج ، وقد أسفرت المقارنات عن أن التوائم في كل زوج من التوائم المتماثلة يتشابهان الى حد كبير في الحجم الجنى ، وغير ذلك من المظاهر الجسمية ، وأن درجة الذكاء في مستوى الذكاء أكبر من درجة التشابه في السمات الشخصية . فتأثير البيئة على نمو الانسان يقل بالانتقال من حجم الجسم الى ذكاء الفرد فشخصيته (٦٧) .

على أن هناك من يذهب الى أنه لاتجب المبالغة في تقدير أثر الوراثة في

(٦٥) محمد عماد الدين اسماعيل ، المنهج العلمى وتفسير السلوك (مرجع سابق) ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

(٦٦) عبد الحليم منتصر ، الوراثة والجنس ، (مرجع سابق) ، ص ص ١٨ - ٢٢ .

(٦٧) أحمد عبد العزيز سلامة ، عبد السلام عبد الغفار ، علم النفس الاجتماعى (مرجع سابق) ص ٦٥ .

حياة الفرد والمجتمع فهي ليست بذات بال إذا ماقيست بالعوامل الأخرى المؤثرة فمن الممكن التدخل في عامل الوراثة وتغيير اتجاهات الطبيعة ، وفقا لرغبات المجتمع وأهدافه • ومقتضيات الحياة الاجتماعية التي تتطور بسرعة ، وكذا بفضل التربية •

وغالى هؤلاء في رأيهم فذهبوا الى أن المجتمع قادر على أن يقضى على آثار الوراثة ، بل سببه ماخضعوا له من ظروف (٦٨) •

والبيئة التي تؤثر في سلوك الانسان تشمل البيئة غير العضوية ، والبيئة العضوية والبيئة فوق العضوية • وهناك علاقات متبادلة بين هذه المظاهر الثلاثة الممثلة لجميع حقائق الوجود ، والانسان ، يشارك في هذه البيئات يؤثر فيها ويتأثر بها ، وتستند صلاته بالبيئة العضوية ، وينفرد بالبيئة فوق العضوية ، وهي البيئة الاجتماعية •

وهذه البيئة الاجتماعية تشمل جميع مظاهر انثرات الاجتماعى والثقافى والحضارى من عقائد وطقوس وتقالييد وعرف وعادات ومخترعات وفنون : فالبيئة الاجتماعية تشمل كل ماامتدت اليه يد الانسان ، وما استحدثته في مختلف وجوه نشاطه الاجتماعى •

والبيئة الاجتماعية تعنى التراث الاجتماعى ، وهو يقابل التراث الطبيعى والبيولوجى وعناصر البيئة الاجتماعية هي : اللغة ، والعادات ، والعرف ، والتقاليد ، والتراث الثقافى والحضارى بجانبه المادى والمعنوى (٦٩) •

والانسان يتأثر بالبيئة منذ أن يكون جنينا ، وليس تأثير البيئة يخاف على أحد ، فعادات النطق والمشي وتناول الطعام ، واكتساب المعرفة ، كلها تؤكد أثر البيئة في تحديد الطبيعة الانسانية • ويمكن القول بأن الطبيعة الانسانية تتأثر بالوراثة كما تتأثر بالبيئة ، دون اغفال لأى منهما •

(٦٨) مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه (مرجع سابق) ، ص ١٧٠ •

(٦٩) مصطفى الخشاب ، دراسة المجتمع ، ط ٢ ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٩ - ١٩٧٠ م - الفصل الثالث - البيئة الاجتماعية وعناصرها •

والاسلام في تناوله لهذه المشكلة يؤكد أثر كل من الوراثة والبيئة معا ،
 وأثر الوراثة يتضح في قوله تعالى « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا
 يزالون مختلفين » فالقرآن الكريم في هذه الآية يؤكد دور الوراثة مع تثبيت
 البيئة ، فالأمة واحدة والناس مع ذلك مختلفون ، مختلفون في الأمزجة والطباع .
 ويقول تعالى « قل كل يعمل على شاكلته » الاسراء : ٨٤ . ويتضح الاثر
 الوراثي أيضا في قوله تعالى « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة
 لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله
 شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون
 إذ تأملت رب ابن لى عندك بيتا في الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من
 القرم الطامنين » التحريم : ١٠ ، ١١ . فالآيتان توضحان أثر الاستعداد الوراثي
 في الإيمان والكفر ، فامرأة نوح تكفر مع أنها زوج له ، وامرأة فرعون تؤمن مع
 ان زوجها كافر . ويتضح الاثر الوراثي أيضا في قوله تعالى « ألم تر ان الله
 أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ، ومن الجبال لجدد بيض
 وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والحيوانات والانبعاث مختلف
 ألوانه كذلك » فاطر : ٢٧ ، ٢٨ . ويؤكد أيضا قوله تعالى « ان الله اصطفى
 آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » ذرية بعضها من بعض والله
 سميع عليم » آل عمران : ٣٣ . فالآية هنا توضح انتقاء الله تعالى لهؤلاء ،
 وانتقال هذا الانتقاء للأجيال اللاحقة « ذرية بعضها من بعض » ويؤكد هذا أيضا
 قول الرسول عليه السلام « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » ، وقوله أيضا
 واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم » (٧٠) .

وإذا كان الاسلام يقر أثر الوراثة فهو أيضا يقر أثر البيئة ، فما كانت
 الدعوة الاسلامية تنتج لو بقيت في البيئة المكينة . ولقد بدأت في الانتشار
 والذوبوع بالهجرة الى المدينة . ولعل هذا ما تفسره الدعوة الى الهجرة في قوله
 تعالى « قال ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » فالهجرة معناها تعديل

(١٠) مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٧ ، القاهرة ، محمد على صبيح ، د .
 ت . ، ص ٥٨ .
 أنظر : صحيح الترمذى ، ج ١٣ ، ط ١ ، القاهرة ، مطبعة الصاوى ،
 ١٣٥٢ هـ - ١٩٣٤ م ، ص ٩٤ .

في البيئة وتغيير فيها بما يسمح للدين أن ينتشر ، وبما يسمح للفرد أن يمارس عبادة الله بعيدا عن الاضطهاد والتعذيب .

ولا يمكن تفسير هذا التحول الدينى والثورة على عبادة الاصنام الا بالبيئة ، تلك التى وضع معالمها الاسلام .

والوراثة والبيئة -- وان كان يغلب أحدهما على الآخر أحيانا -- متكاملان ، فالاستعداد الطيب مع البيئة الطيبة ينتجان الشخصية المؤمنة . يؤكد هذا قول الرسول الكريم « ما من مولود الا ويولد الا ويولد على الفطرة ، وأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعا » (٧١) .

والاسلام بتأكيدهِ للوراثة والبيئة معا يرفض فكرة الخطيئة الموروثة التى قالت بها المسيحية قال تعالى « ولا تزر وازرة وزر أخرى » الاسراء : ١٥ . وقال تعالى « كل نفس بما كسبت رهينة » المذثر ٢٨ وقال تعالى « وكل انسان الزمناء طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . لقرا كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » الاسراء : ١٣ ، ١٤ .

والاسلام باقراره لأثر الوراثة والبيئة معا يحقق التفاوت بين الناس ، ويفتح الباب أمام الانسان لينطلق آملا فى تحقيق حياة سعيدة آمنة . فهو بما زوده الله به من استعدادات وقدرات قادر على أن يغير فى بيئته ، ويصلح من شأنه ، وهو بماسخر له من الاشياء وذل له من الكائنات قادر على أن يستغل البيئة لصالحه ولصالح بنى الانسان « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها ، وكوا من رزقه واليه النشور » الملك ١٥ . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين « وسخر لكم الليل والنهار » ابراهيم ٣٣ « والخيول والبغال والحمير لتركبوها وزينة » النحل : ٨ .

فالوراثة والبيئة معا يؤثران فى الطبيعة الانسانية ، فالاستعدادات تنشط لاشباع حاجاتها من البيئة ، والبيئة تتولى تشكيل الاستعداد وتعديله

(٧١) مسلم ، صحيح مسلم ، ج ٨ ، القاهرة ، محمد على صبيح ، ص ٥٢ .

قوة وضعفا . والتفاعل بين الوراثة والبيئة في ظل التوجيه الاسلامى ، وتحت ضوابطه يحقق الخير للانسان وللانسانية . ويتضح هذا في تهذيب الاسلام للغرائز النذارية فقد هذب الغريزة الجنسية بالزواج ، وهذب التملك بالزكاة ، وهذب غريزة السيطرة بالشورى وهذب غريزة الاجتماع بالتعاون على البر والتقوى . وهذب غريزة المغامرة بالشجاعة في الحق ، وهذب غريزة التنافس ، بالتنافس في مجال الطاعة والجهاد في سبيل الله . وهذب غريزة الجشع والعطش بالصوم . وهذب غريزة الغضب بالحلم ، وهذب حب الانتقام بالعفو ، الى غير ذلك من الغرائز .

وهذا يؤكد ان الاسلام يقر بعامل الوراثة كما يقر بعامل البيئة في سلوك الانسان ، فالبيئة التى ارادها الاسلام هى البيئة التى تتولى تطوير وتهذيب الميول والاستعدادات بالشكل الذى يضمن لها اشباعها ولكن في غير شرها . وهنا تكون الفروق الفردية ، ويكون التفاوت بين الناس كل حسب طاقته وجهده « لا يكلف الله نفسا الا وسعها » .

ومع التفاعل بين الوراثة والبيئة يكون التفاضل بين الناس ، مع التفاضل بينهم يتحقق التكامل بين أجزاء المجتمع . ومع التكامل بين أجزاء المجتمع تتحقق الحياة ويتحقق البقاء .

٣ - الخير والشر في الطبيعة الانسانية :

بعد ان عرضنا لجانب البيئة والوراثة وأثرهما في الطبيعة الانسانية ، يهمننا أن نعرض لجانب آخر وثيق الصلة بالجانب السابق ، وهو جانب الخير والشر في الطبيعة الانسانية .

ولقد كثرت الفلسفات وتنوعت الآراء التى تناولت هذا الجانب ، فهناك من ذهب الى القول بأن الطبيعة الانسانية شريرة بطبيعتها ، وأن الشر جزء من تكوينها ، لذا فهو يشن الحروب ويقوم بالافساد والتدمير . ومن يمثل هؤلاء الفيلسوف « هوبز » الذى ذكر ان الانسان ذئب ازاء الانسان .

ومن أكبر أثويدين لوجهة النظر هذه بعض رجال الدين المسيحي الذين قالوا والخطيئة الموروثة لذا نادوا بالزهد والعزوف عن الحياة والاخذ بأسلوب

الرهينة واتباع سياسة التتشف حتى يمكن قتل الرغبات الجسدية في الانسان
أو قمع الشهوات فيه .

على أن وجهة النظر هذه قد اتخذت أحيانا تبريرا للمسلك السياسى
الذى انتجه الحكام المستبدون والذين يرفضون التغيير ويبقون على ما هم
قائم حتى يتسنى لهم تحقيق غاياتهم ومطامعهم الخاصة . فينعمون هم
بالسلطة والعيش الرغيد ، بينما تبقى الكثرة الغالبة تعاني الفقر والحرمان ،
لا عليها الا أن تخضع لأوامر الحاكم وتستجيب لرغباته .

وأحيانا تلتقى رغبة الحاكم مع رغبة رجل الدين فيتخذان من وجهة
النظر هذه تبريرا لمسلك الاستغلال والسيودية ، فأمراء أشعب ذوو طبائع
شريرة ، ولا مناص من قمعها وإذلالها ، عن طريق البطش مرة ، وعن طريق
الزهد في الحياة والانصراف عنها أملا في حياة سعيدة وراء هذه الحياة الدنيا
مرة أخرى .

وواضح ما في هذه النظرة من نزعة تنقسم بالتشاؤم، والاستسلام، واليأس
من الإصلاح والتغيير ، والركود لحياة الجمود والرقابة .

ويناقش هذه النظرة أخرى تؤكد أن الانسان خير بالطبع ، وأن الشر هو
أمر عارض عليه ، وأول من رأى ذلك فلاسفة الاغريق وعلى رأسهم سقراط
وأفلاطون وأرسطو . فقد نادى « بنظرية المثل التى تقوم على أساس أن
الانسان خير بطبعه ، وأن الشر لا يدخل في تركيبه . وإنما يدفع اليه دفعا
من خلال المجتمع وتنظيماته . أما في المجتمع المثالى حسب تصور أفلاطون
له ، فإن الطبيعة الانسانية تنفتح فيه بكل ماركب فيه من خير (٧٢) .

ومن الذين قالوا بهذا أيضا « روسو » وأتباعه من أصحاب المدرسة
الطبيعية ، فقد ذكر « روسو » أن الطبيعة الانسانية خيرة ، وأن كل شئ حسن
ما لم تمتد اليه يد الانسان . وما يحدث من شر ليس مبعثه الطبيعة الانسانية

(٧٢) عبد الغنى النورى . عبد الغنى عبود ، نحو فلسفة عربية للتربية ،
ط ١ ، القاهرة ، دار الفكر العربى ، ١٩٧٦ م ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

بل سببه المجتمع بنظمه وأساليبه ، وما يفرضه على الطبيعة من قيود ظالمة مستبدة .

ومع أن هذه النظرة تتسم بالتناقض ، إلا أنها تنطوي على جانب من المبالغة إذ من الصعب أن ينسب الخير إلى الطبيعة الانسانية وحدها . ولو أن الأمر كذلك لما كان هناك مبرر لوجود المجتمع بنظمه وعاداته وتقاليده ، ولما كانت هناك حاجة لتشريع والدستور . ولأصبح وجود المجتمع عبثا . أن تصرف الطبيعة الانسانية بمحض طبيعتها لا يمكن خيرا في كل الحالات . ولو أن الطبيعة الانسانية كانت خيرة لما تنازع الناس ولما اختلفوا فيما بينهم ، ولعاشوا في سعادة واءاء وهذا ما تؤكده الحياة البدائية الهمجية التي تقوم على القوة والعنف وحق الحياة للأقوى .

أما في الاسلام الامر يختلف فهو لا ينظر للطبيعة الانسانية نظرية تفاؤلية فيقول انها خيرة بطبيعتها . وإنما يقف منها موقفا وسطا ، فهي ليست خيرة وليست شريرة ، وإنما هي استعدادات وقدرات قابلة للتشكل والصياغة . ومن خلال تفاعلها مع المجتمع يتحدد نعتها بالخير أو بالشر ، فليست هناك طبيعة انسانية خيرة أو شريرة ، وإنما هناك ارادة وقدره وصعاب ، ويقدر ما تحزره الطبيعة الانسانية من نجاح وتوفيق بقدر ما تكون خيرة ، ويقدر ما تفشل وتحقق بقدر ما تكون شريرة وإذا كان القرآن الكريم يقول « أن النفس لأماره بالسوء » فهو يقول أيضا « ولا أقسم بالنفس اللوامة » . ويقول تعالى « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاهما ، وقد خاب من دساها » . ويقول تعالى « أنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا » ويقول تعالى « وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة » ويقول تعالى « ولو شئنا لآتيناه كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » السجدة ١٣ ويقول تعالى « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » . فالآيات كلها تؤكد حيده الطبيعة الانسانية وعدم وصفها سلفا بأنها خيرة أو شريرة ، وإنما يتحدد ذلك بما تقوم به الطبيعة الانسانية من سلوك ، وما تزاوله من عمل « كل نفس بما كسبت رهينة » .

لقد زود الله تعالى الانسان بالقدرات الجسمية والعقلية والوجدانية،

وذال له الكون وسخر له الكائنات ، وأرسل اليه - مع ذلك - الرسل يبشرون وينذرون ويميزون بين طريق الحق وطريق الباطل ، ثم ترك للانسان أن يحدد طبيعته فيجعلها خيرة عندما يزيكها ، ويجعلها شريرة عندما ينزل بها الى الحضيض . ويقول الرسول الكريم : « ما من مولود الا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه » يقول ابن الأثير في شرح هذا الحديث : الفطر الابتداء والاختراع ، ومعنى الحديث أنه يولد على نوع من الجبلة ، والطبع المتهيئ لقبول الدين ، فلو ترك لاستمر على لزومها ، ولم يفارقها الى غيرها . وانما يعدل عنه لآفة من آفات البشر والتقليد ، ثم تمثل بأولاد اليهود والنصارى في اتباعهم لأبائهم والميل لأديانهم (٧٣) .

ويذكر ابن سينا أن الانسان يولد على الفطرة ، ويكتسب صفاته المختلفة من المجتمع بمؤثراته الثقافية المختلفة . يقول ابن سينا « والأخلاق كلها الجميل منها والقبيح هي مكتسبة ، ويمكن للانسان متى لم يكن له خلق حاصل جاز أن ينتقل بارادته عن ذلك الى ضد ذلك الخلق » (٧٤) .

والحديث عن الخير والشر في الطبيعة الانسانية يسلم الى الحديث عن الجانب الرابع من جوانب الطبيعة الانسانية وهو جانب الحرية والجبرية في الطبيعة الانسانية .

٤ - الجبر والاختيار في الطبيعة الانسانية :

وهذا الجانب في الطبيعة الانسانية قد شغل بال الكثير من المفكرين والفلاسفة ورجال الدين ، فهناك من يذهب الى أن الانسان حر فيما يختار ويريد ، ولا دخل في هذا لقدرة الله وارادته ، وهناك من يذهب الى أن الانسان مجرد من أية حرية في الارادة ، ومن قال بهذا « جون كالفن » (١٥٠٩ - ١٥٦٤ م) في معاهده الدينية المسيحية . « واسبيوزا » الذي يرفض مذهب حرية الارادة ، ويؤكد لو أن الفرد عرف الحق والصواب لفعله بصورة آلية ، نالارادة مرادفة للفهم وفهم الصواب يعنى اختياره . ولا توجد في العقل ارادة

(٧٤) ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، ط ١ ، ج ٣ ، القاهرة الطبعة الأخيرة ، ص ٢٣١ .

(٧٤) عبد الرحمن عبد الرحمن الققيب ، الآراء التربوية في كتابات ابن سينا ، (مرجع سابق) ، ص ٨٦ .

حرة مجردة مطلقة ، ولكن توجد مجموعة من الاسباب مترابطة ، ولو أن الواحد كان لديه قدر كاف من الحقائق لاستطاع أن يتنبأ بما سيفعله الشخص ولو بعد عشر سنوات ، والإرادة والفهم شيء واحد (٧٥) .

ويهم الباحث أن يشير إلى الفرق بين الجبرية والحتمية ، فالجبرية أو القدرية تعنى الاستسلام المطلق ونسبة كل شيء إلى الله ، دون محاولة لمعرفة الاسباب ، وحياة الانسان هي أشبه بكتاب سجل عليه كل شيء . وكل مايفعله الانسان أن يعيش حياته في حدود الدور الذى قدر له أن يلعبه ، فالجندى مثلاً في ساحة القتال ، ومع تطاير الرصاص من حوله . إذا كان يؤمن بالجبرية - لا يحاول أن يفكر في سبيل للنجاة أو الخلاص ، وكل ما يقول هو أنه إذا كان قد حان أجله فليس هناك شيء يجب أن يفعله (٧٦) . والحتمية تعنى خضوع كل الكائنات بما في ذلك الانسان لقوانين حتمية لا مجال معها للصدفة أو المفاجأة فالحتمية تختلف عن الجبرية من حيث أن الاولى تدعو لمعرفة الاسباب ، والوقوف على القوانين التى تحكم كل الاشياء . أما الاخيرة فهي تعزو الاحداث والوقائع إلى الله دون محاولة للوقوف على أسبابها الحقيقية .

وقضية الجبر والاختيار في الفكر الاسلامى قضية جد خطيرة ، امتدت خطورتها إلى البحث في عدالة الله ذاته . وهي تعد من الامور المتشابهة في القرآن أى الامور المشككة التى قد يضطرب فيها الفكر ويتناقض فيها العقل .

وكما حوى القرآن الكريم آيات تقرر الجبرية في الطبيعة الانسانية ، فقد حوى آيات أخرى تؤكد الحرية والاختيار فيها . ومن الآيات التى تقرر الجبرية قوله تعالى « اذا كل شيء خلقناه بقدر » ، وقوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » ، وقوله تعالى « ما اصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها ، ان ذلك على الله يسير » ، وقوله تعالى « والله خلقكم وما تعلمون » وقوله تعالى « قل الله خلق كل شيء ، وهو

Sahakian, William S. & Sahopian, M, Lewis : (٧٥)
Realms of philosophy. Sshenk Man puylishing Company,
Lnc 1965, P. 324.

Ibid P. 273.

(٧٦)

الواحد القهار » ، وقوله تعالى « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » ، وقوله تعالى « يضل من يشاء ويهدي من يشاء » ، وقوله تعالى « ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » .

ومن الآيات التي تقرر حرية الانسان واختياره قوله تعالى « لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت » ، وقوله تعالى « ما أصابك من حسنة فمن الله ، وما أصابك من سيئة فمن نفسك » ، وقوله تعالى « أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ، قل هو من عند أنفسكم » ، وقوله تعالى « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ، وقوله تعالى « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » ، وقوله تعالى « أو يوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير » .

وكما ان الآيات قد يبدو فيها الاختلاف ، فكذا الحديث الشريف . فالرسول عليه السلام عندما يقول : « ما من مولود الا ويولد على الفطرة ، أبواه يهودانه وينصرانه » - فهو يؤكد حرية الانسان واختياره . عندما يقول « خلق هؤلاء الجنة وبأعمال أهل الجنة يعملون » - فهو يقرر الجبرية .

وبسبب هذه القضية ظهر في صدر الاسلام أربعة مذاهب : القدرية ، والجبرية ، والمعتزلة . والأشاعرة (٧٧) .

والقدرية تدّعي الى ان الانسان يقدر أعمال نفسه بعلمه ، ويتوجه انيها بارادته ، ويوجد ما بقدرته ، فالحق تعالى لا يقدر هذه الأعمال ازلا ، ولا يتدخل فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » ، وقوله تعالى « أو يوبقهن بما كسبوا ويعفو عن كثير » .

أما الجبرية ومؤسسيها « جهم بن صفوان » ، وأتباعه ، فهي تنفي الفعل حقيقة عن العبد ، وتضيفه الى الرب تعالى . والجبرية اصناف ، فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلا ، لا قدرة على الفعل أصلا والجبرية

(٧٧) محمد يوسف موسى ، القرآن والفلسفة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ م ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

المتوسطة هي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة (٧٨) .

والمعتزلة تقف موقفاً وسطاً بين الفريقين السابقين ، فهي تقول ان الله تعالى علم كل شيء وقدره أزلا يستوى في ذلك فعله أو فعل العباد . وأفعال نفسه هي التي يريدونها ويوجدونها وفق علمه الأزلي أما أفعال الانسان فيتركها الله تعالى للانسان ، وان كان يعلم أزلا ما سوف تكون عليه هذه الافعال .

وأهل السنة يقولون ان أفعال العباد وجميع الحيوانات مخلوقة لله تعالى ، ولا موجد لها الا الله تعالى سواء أكان الموجد عيناً أم عرضاً . ويحتج أهل السنة لرأيهم هذا بقوله تعالى « والله خلقكم وما تعملون » أي خلقكم وعملكم . كما يحتجون بأن فعل العبد محدث ، وهذا جائز الوجود فيستوى فيه امكان الوجود والعدم ، فلا يترجح الوجود على العدم الا بمخصص واجب الوجود وهو الله تعالى ، لأن العبد متى كان قادراً على ايجاد الحركة في نفسه فنقول : هل يقدر الله تعالى على ايجاد السكون في نفسه في تلك الحالة أو لا ؟ ان قلت يقدر ، لزم اجتماع الضدين ، وان قلت لا يقدر ، لزم تعجز الله تعالى ، وكلاهما محال . وفعل العبد يسمى كسباً لا خلقاً ، وفعل الله تعالى يسمى خلقاً لا كسباً (٧٩) . ويرد المعتزلة على أهل السنة بأن أفعال العباد مخلوقة ، ويؤيدون رأيهم بطريقتين : طريق الشرع الذي يقوم على فكرة الثواب والعقاب ، فهم يرون أن العبد يثاب على فعله الحسن ، ويعاقب على فعله القبيح . وطريق العقل حيث يقولون : ان العاقل يستطيع يميز بين حركاته الارادية وحركاته غير الارادية (٨٠) .

(٧٨) الشهرستاني ، المل والنحل ، ج١ ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة محمد علي صبيح وأولاده ، ١٣٤٧ هـ ، ص ٩٠ .
(٧٩) الشيخ الامام نور الدين الصابوني (تحقيق وتقديم فتح الله خليف) ، كتاب البداية من الكفاية في الهداية في أصول الدين ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٩ م ، ص ١١٢ ، ١١٣ .
(٨٠) محمد عاطف العرافى ، « مشكلة الحرية في الفكر الاسلامى » دراسات فلسفية (مهداه لعثمان أمين) ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ م ، صص ١٩٢ ، ١٩٣ .

والغزالي يقول أن الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة وجوه : الفعل الطبيعي ومثاله غرق الإنسان في الماء ، والفعل الإرادي ومثاله التنفس بالرئة والحنجرة . والثالث الفعل الاختياري ومثاله الكتابة بالأصابع . والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي والفعل الإرادي ، أما الفعل الاختياري فالامر مشكل لأن هذا الفعل ذو وجهين فإذا حكم العقل من غير تردد بأن الفعل موافق ، وأما أن يتردد ويتروى وفي كلا الأمرين فإن الإرادة مسخرة لحكم العقل ، والقدرة مسخرة للإرادة ، والحركة مسخرة للقدرة ، والكل مقدر في الإنسان بالضرورة من حيث لا يدري ، إنما هو كما يقول الغزالي محل ومجرى لهذه الأمور لا خالق لها بحرية . ماذن معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه . ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً . بالاحتمية - انتهى سبقت الإشارة إليها - ويقول « ابن رشد » أن فكرة القضاء وحدث هذا الحكم جبر أيضاً ، فاذن هو مجبور على الاختيار » (٨١) .

« وابن رشد » يقول بالحرية في فعل الإنسان ، ويفسر القضاء والقدر والقدر ترجع عندي الى فكرة السببية ، فإذا كانت إرادتنا تجرى على نظام محدد ، وإذا كان ما في العالم الخارجى يجرى على هذا النظام ، فإن هذا يقوم على منطق الاسباب والمسببات ، والعلاقات الضرورية بين كل منهما . ففكرة القضاء والقدر لا تخرج عن فكرة السببية (٨٢) .

ويقول الامام محمد عبده : لا يوجد مسلم يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة بل ان كل انسان يعتقد بأن له جزءاً اختيارياً في أعماله ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب . والناس سوف يحاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختيارى ، كما أنهم مطالبون بامتنال جميع أوامر الله ، الداعية لكل خير الهادية لكل فلاح .

(٨١) جميل صليبا ، تاريخ الفلسفة العربية (مرجع سابق) ، ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

(٨٢) محمد عاطف العراقي ، النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م ، ص ٢٠٣ .

وعن القضاء والقدر يقول الامام محمد عبده : أن الاعتقاد بالقضاء والقدر يؤيده الدليل ، وترشد اليه الفطرة ، فالانسان لا يرى من سلسلة الاسباب الا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها الا الخالق ، والانسان متأثر بمظاهر الكون في فكره وارادته ، فهو يجهل الاسباب احيانا ولا يلتمس بها ، فلكل حادث سبب مقارن له في الزمان .

ويقول محمد عبده : ان الاعتقاد بالقضاء والقدر لو تجرد عن شفاعة الجهر لتبعته صفة الاعدام والشجاعة والبسالة والجرأة (٨٣) .

بعد هذا يمكن القول بأن الاسلام قد أكد حرية الانسان واختياره لفعله وهو لذلك محاسب على فعله ، ومسئول عن سلوكه واذا كان الاسلام قد اقر الحرية في الطبيعة الانسانية فقد اقرها في مجال العقيدة ، والفكر ، والاقتصاد ، والسياسة ، والقضاء والقدر ليس رفضا لهذه الحرية أو انكارا لها ، بل يمكن القول بأنه مكمل للحرية ، فاذا كان الهدف من الحرية هو توفير الامن والاستقرار للطبيعة الانسانية بعيدا عن القيود والاعلال ، فان القضاء والقدر يهدف أيضا الى نفس هذه الغاية ، فالقضاء والقدر ينلج الصدور ، ويريج الفكر عندما يعيا عن ادراك الاسباب ، ويعجز عن استكناه الحقيقة .

والحديث عن الجهر والاختيار في الطبيعة الانسانية يؤدي الى الحديث عن مجال الممارسة ومدى القدرة على السلوك والفعل ، وهذا ماسوف نتناوله في الجانب الخامس وهو :

٥ - الفردية والاجتماعية في الطبيعة الانسانية :

غالت بعض المذاهب الفلسفية فأعلنت من شأن الفرد على حساب المجتمع ، وجعلت الفرد محور اهتمامها ، وأنكرت على المجتمع أن يكون له سلطة التوجيه والارشاد ، ورأت أن مايصدر عن الفرد من سلوك خاطئ، انما يرجع الى قيود المجتمع ونظمه . فلو ترك الفرد ونفسه متحررا من ضوابط المجتمع وأساليبه

(٨٣) محمد رشيد رضا ، تاريخ الاستاذ الامام ، ج ٢ ، ص ٢٦١ ،

لعاش في سعادة وطمأنينة • وهذا ماتقول به - مثلا - الطبيعية • كذا أيضا فان الوجودية قد أعلنت من شأن الذات • وجعلت من الفرد محور اهتمامها وعهد دعوتها • ونادت بأن يتمتع الفرد بالحرية الكاملة • ويقدر مايمارس حريته بقدر مايحقق ذاته ، فحياته مشروع يتحقق بممارسة السلوك الحر نحو الكون ونحو الآخرين • وتعتقد الوجودية أن الفرد هو الذى يحدد لنفسه سلوكه ، طالما كان على وعى وإدراك بما يقوم به • وإذا كان الفرد يلتزم بمبادئ معينة ، فان التزامه بها ناجم عن وعيه بالحرية التى يمارسها •

ومن ناحية أخرى غابت بعض المذاهب الفلسفية فأعلنت من شأن المجتمع على حساب الفرد • ونظرت للفرد على أنه جزء من آلة كبرى • فالفرد ينبغي أن يخضع لقيود المجتمع ونظمه وثقافته وليس من حقه أن يثور على المجتمع ، أو يفكر في الخروج عليه • ووجود الفرد لايتحقق الا من خلال المجتمع • والفرد هو طاقة مادية تصاف الى الطاقات الاخرى من أجل حياة المجتمع وبقائه • بهذا قالت الماركسية المادية • وبهذا فان أيضا « هيجل » الذى اطلق على المجتمع الروح المطلق •

وواضح ما في كلتا النظرتين من تطرف ومجافاة للحقيقة • فلا يمكن القول بالفرد على حساب المجتمع اذ لايمكن للفرد أن يحيا بمعزل عن المجتمع • كذلك لايمكن القول بالمجتمع على حساب الفرد لأن هذا يعنى انكارا لحرية الفرد ، ورفضاً لكيانه المستقل •

وفي الاسلام - وهو الدين الوسط - يختلف الامر ، فالاسلام يقر ويؤكد الكيان المستقل للفرد كما يقر ويؤكد الكيان المتكامل للمجتمع • ويقرر أن المجتمع يستمد وجوده من كيان الفرد • والفرد يحقق ذاته من خلال التعامل مع المجتمع •

ويتضح تأكيد الاسلام للكيان المستقل للفرد في الحقوق التى قررهما له • وأول هذه الحقوق حق الحياة نفسها • فلم يبيح الاسلام قتل نفس أو إراقة دم فرد الا بحق ، هذا الحق اما أن يكون من أجل القصاص أو من أجل

الارتداد عن الدين ، أو من أجل السعى في الأرض بالافساد . يقول تعالى « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن والسن بالسن ، والجروح قصاص » المائدة : ٤٥ . ويقول تعالى « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض » المائدة : ٣٣ .

ويغير هذا لا يحق قتل نفس ولو كان لضرورة اقتصادية ، يقول تعالى « ولا تقتلوا أولادكم خشية أملئ نحن نرزقهم وإياكم » الاسراء : ٣١ . ويقول تعالى « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق » الاسراء : ٣٣ .

ولقد وفر الاسلام حق الحياة للانسان منذ أن يكون جنينا في بطن أمه ، لذا أباح الاسلام للحامل أن تفر خوفًا على الجنين إذا ما كان عرضه للهلاك ، وأنعم الله تعالى على الانسان وهو رضيع فأجرى اللبن له في ثدى أمه « وعهديناه النجدين » وسخر له مافي الأرض من نعم وخيرات ودعاه الى السعى فيها « فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه » من أجل هذه الحياة ومن الحقوق التي أقرها الاسلام للفرد حق الحرية يقول تعالى « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله » آل عمران : ٧٩ . ولقد اعطاه هذا الحق يوم أن دعاه لعبادته والخضوع له ، وعد الله تعالى الخضوع لغيره شركا وذلة . ولم تكن الحرية لتشمل مجالا واحدا من مجالات السلوك الانساني ، وانما تشمل كل المجالات . أقر الاسلام للفرد الحرية الدينية قال تعالى « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » البقرة : ٢٥٦ . وقال تعالى « أضافت نكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » يونس : ٩٩ . وقال تعالى « فإن توليتم فاعلموا انما على رسولنا البلاغ المبين » المائدة : ٩٢ . ويقول تعالى « قل ياأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين » . ويقول تعالى « ما صدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » الحجر : ٩٤ .

فهذه الآيات وغيرها كثير تؤكد حرية العقيدة ، لكنها لاتعنى ان الفرد حر فى أن يعتنق الاسلام ثم يرجع عنه لان هذا يعنى ردة •

وقد اتضحت حرية العقيدة من خلال الممارسة الفعلية للرسول الكريم وصحبه ، فلقد بنى الرسول عليه السلام بمارية القبطية ، وهاجر المسلمون الأوائل الى أرض الحبشة المسيحية • وحتى فى مجال النقاش الدينى دعا الله تعالى نبيه الى المجادلة الحسنة « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » وقد أمر عمر بن الخطاب بجلد ابن عمرو بن العاص عندما علم باعتدائه على قبطى من مصر وقال للبهلى اضرب ابن الأكرمين متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا • فحرية العقيدة مكفولة طالما كانت بعيدة عن الضرر والأذى وفساد المصلحة العامة • كذا أمر الاسلام حرية الرأى فلم يصادر رأيا مخالفا ، ولم يمنع مساحبة بأنه مروق من الدين • وقد أعطانا الله درساً فى حرية الرأى واحترام فكر الآخرين من خلال موقف الخليل ابراهيم منه قال تعالى « واذا قال ابراهيم رب أرنى كيف تحبى الموتى » قال : أو لم تؤمن ، قال بلى ولكن ليطمئن قلبى « سورة البقرة : ٢٦٠ ، فابراهيم عليه السلام عندما خامرته خاطرة ، وساورته فكرة لم يتورع عن أن يسأل الله تعالى حتى يطمئن قلبه • ومع هذا لم يطرده الله من رحمته ، ولم يقل عنه أنه نبي خليل الله (٨٤) •

ويقول الله تعالى « وكان الانسان أكثر شيء جدلا » • فالانسان من طبيعته الشك والتفكير والجدل • ولقد كان المنهج الذى انتهجه ابو الحنيفية ابراهيم الخليل « منهجا يقوم على الشك الذى يفضى الى اليقين قال تعالى « فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين • فلما رأى القمر بازعا قال هذا ربى • فلما أفل ، قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين • فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما

(٨٤) بنت انشأطى ، مقال فى الانسان (مرجع سابق) ، ص ٩١ ، ٩٢ •

أقلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون • انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » الأنعام : ٧٦ - ٧٩ •

وقد حوى القرآن الكريم سورة كاملة تحمل اسم المجادلة « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها » • وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - اذا دخلت عليه هذه المرأة أكرمها واحسن استقبالها • وقال : قد سمع الله بها ، وقصة عمر بن الخطاب مع المرأة التى اعترضت عليه عندما أراد أن يحد من الغلاء فى المهور معروفة ، فلقد قرر عمر أن يأخذ ما زاد على خمسة وعشرين درهما ، ويرده لبيت المال ، فخرجت امرأة ، وقالت بأعلى صوتها على مرأى ومسمع من الجالسين • ليس لك هذا يا عمر ، فلم يزعجها بل سألها ، ولم ؟ قالت لأن الله تعالى يقول « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً » • فرجع عمر عن رأيه ، وقال : أخطأ عمر وأصابت امرأة •

وحرية الرأى فى الاسلام مكفولة ما لم تكن خدمة فاحشة « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » • ويقول تعالى « • • • ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق » الكهف : ٥٦ ، ويقول تعالى « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفة ليضل عن سبيل الله ، له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » الحج : ٨ • ويقول تعالى « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب » غافر : ٥ •

ولقد اعترض عمر بن الخطاب رضى الله عنه على شروط صلح الحديبية وقال : لم نعطى الدنيا فى ديننا ؟ ولم يعنفه الرسول عليه السلام أو يزجره • كما استمع الرسول لرأيه ورأى أبى بكر فيما يتخذه من أسرى بدر • فأشار عمر بالقتل ، وأشار أبو بكر بالافتداء •

وحرية الفكر فى الاسلام هى التى كفلت وجود هذا التراث العلمى الزاخر،

وعى التى أدت لظهور الفرق الاسلامية . وقد أقر الاسلام فعل معاذ حين بعثه واليا ليعلم الناس أمور دينهم فقال له بم تحكم ؟ قال بكتاب الله ، قال : فان لم تجد ؟ قال بسنة رسوله . قال فان لم تجد ؟ قال اجتهد برأى .

ويعد الاسلام الاجتهاد الفكرى مصدرا من مصادر الشريعة . يقول الرسول فى حديث معناه المؤمن ان اجتهد فإخطأ فله أجر ، فان اصاب فله أجران . الأمر الذى يؤكد حرص الاسلام على توفير الحرية الفكرية وتقديره لها ، فلا مصادرة فى رأى ، ولا اهراب فى الفكر . ان طبيعة الاسلام نفسها تقوم على التفكير ، لان الانسان بطبيعته مفكر فالاسلام حين يقرر الحرية فهو يقرر حقا ثابتا بمقتضى الفطرة .

كذا أقر الاسلام حرية الكسب وطلب الرزق ، وأطلق الطاقات المنتجة من عقالها . ودعا الانسان الى بذل الجهد والعمل « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » .

وقرر الاسلام أيضا الحرية السياسية او مايسمى الان بالديمقراطية ، يقول تعالى « وأمرهم شورى بينهم » ويقول أيضا « وشاورهم فى الأمر » . ويقول أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - أيها الناس انى وليت عليكم ولست بخيركم ، القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، أطيعونى ما اطعت الله فيكم ، فان عصيته فلا طاعة لى عليكم .

ومن الحقوق التى قررها الاسلام للفرد مساواته بالآخرين مع اغفال عوامل الجنس واللون والحسب وغيرها ويقول تعالى « ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ويقول الرسول الكريم « كلكم لأدم ، وآدم من تراب » . ويقول « الناس سواسية كأسنان المشط » . وكان من أصحاب الرسول الكريم بلال وصهيب

وسلمان وغيرهم من الأعاجم فالاسلام يقر المساواة أمام القانون وأمام الله ، ويرفض أى حاجز يحول دون تحقيق هذه المساواة . والاسلام حين يقرر المساواة فهو يقرر تكافؤ الفرص بين الأفراد كل حسب طاقته وجهده . أى أن الاسلام لا يغفل الفروق الفردية ولا يهملها .

ومع أن الاسلام قرر هذه الحقوق الفردية الا أنه يقرر أن الانسان يعيش وحده بمعزل عن الآخرين ، ومن ثم فإن للمجتمع حقوقا . وهى حقوق لا تتعارض مع حقوق الفرد ، ولكنها تتكامل معها وتتضافر من أجل الهدف الأسمى وهو عبادة الله وطاعته .

واجتماعية الانسان هذه ضرورة فطرية فالناس كما يقول ابن سينا متفاضلون فى عقولهم وأملاكهم ومنازلهم ورتبهم ، مما يثير الحقد والبغضاء والتنافس والتظالم ، ولو أن الناس كانوا جميعا متساوين لفنوا عن آخرهم ، فلو تساوا فى الغنى لما مهن واحد لأحد ، ولو تساوا فى الفقر لما اتوا وهلكوا بؤسا (٨٥) .

فالانسان اجتماعي بطبعه ، وقد تعرض لهذا الجانب الكثير من المفكرين والفلاسفة ، منهم الغزالي ففى حديثه عن حقيقة الدنيا وأشغالها التى استغرقت همم الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالفهم ومصدرهم وموردتهم - يتناول أصول المجتمع الانسانى وتطوره فيقول « اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة ، للانسان فيها حظ ، وله فى اصلاحها شغل . فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها ، وليس كذلك . أما الاعيان الموجودة التى الدنيا منها فهى الأرض وما عليها ، قال تعالى « انا جعلنا ماعلى الارض زينة لها لنبلوهم ايهم احسن عملا » فالأرض فراش للآدميين ، ومهاد ، ومسكن ، ومستقر . وما عليها لهم ملابس ومطعم ومشرب ومنكح . ويجمع ماعلى الأرض ثلاثة أقسام أقسام : المعادن ، والنبات ، والحيوان . أما النبات يتطلبه

(٨٥) ابن سينا ، « كتاب السياسة » ، تشرلويس معروف ، مجلة الشرق ،

١٩٠٦ م ، ص ٩٦٩ .

الآدمى للاقتنيات والتدلاوى • وأما المعادن فيطلبها للآلات والأواني كالنحاس والرصاص ، وللنقد كالذهب والفضة ولغير ذلك من المقصد • وأما الحيوان فينقسم الى الانسان والبهائم ، أما البهائم منها لحومها للأكل ، وظهورها للمراكب والزينة ، وأما الانسان فقد يطلب الآدمى ان يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويسخرهم كالغلمان ، أو ليتمتع بهم كالجوارى والنسوان ، ويطلب ذلّوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والاكرام ، وهو الذى يعبر عنه بالجاه اذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين • فهذه هى الاعيان التى يعبر عنها بالدنيا ، وقد جمعها الله تعالى في قوله « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين » وهذا من الانس • والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة • وهذا من الجوارى والمعادن • « والخيول المسومة والأنعام » وهى البهائم والحيوانات « والحرث » وهى النبات والزرع •

ويمضى الغزالى في شرح الأعمال الدنيوية والحرف والصناعات ، ويأخذ في تقسيم الناس الى فئات حسب أعمالهم فمنهم النجارون ، والحدادون ، والجزارون ، وغيرهم • كما أن هناك الجنود الذين يقومون بالحراسة ، والولاة الذين يقولون أمور الحكم ، الى غير ذلك مما يقتضيه بناء المجتمع (٨٦) •

يقول الامام محمد عبده « وكفاك من الدليل على أن الانسان لا يعيش الا في جملة ما وهبه الله من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير المعانى في الألفاظ ، وتاليف العبارات ، الا لاستعداد الحاجة الى اتقاعهم ، وليس الاضطرار الى اتقاعهم بين اثنين أو أكثر الا الشهادة بأن لاغنى لأحدهم عن الآخر •

وكلما كثرت مطالب الشخص في معيشته ازدادت به الحاجة الى الايدى العاملة فتشددت الحاجة ، وعنى أثرها الصلة من الأهل الى العشيرة ثم الى الامة وإلى النوع بأسرة (٨٧) •

(٨٦) الغزالى ، احياء علوم الدين (كتاب ذم الدنيا)
(٨٧) الامام محمد عبده ، رسالة التوحيد ، ط ١٥ ، القاهرة ، دار المنار ، ١٣٧٢ هـ ، ص ٩٧ •

ولقد وقف الفيلسوف العربى ابن خلدون (١٣٣٢ - ١٤٠٦ م) نفسه على دراسة المجتمع ، حتى عد رائد علم الاجتماع ، فقد درس المجتمع بهدف الوقوف على قوانينه التى تحكمه فى مختلف مجالاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية فكان فيلسوفا للتاريخ ، رثا فى بيان أثر الاقتصاد فى حياة الأمم والشعوب ومؤسسا لعلم الاجتماع .

ان أهم قوانين العلم الاجتماعى فى رأى ابن خلدون هى قوانين الحركة والتطور التى تتبع الوجه السياسى ، والتى تشبه قوانين الكائنات الحية فى العالم الطبيعى . وهى كائنات لا تثبت عند حال واحدة ، بل هى تتطور وتنمو وتبدل أخيرا . فابن خلدون ينتقل من فكرة انقائون الى فكرة الحياة وتطورها فى نطاق دقيق ، فالفكرة ابن خلدون فى تفسير حياة المجتمع تأخذ شكلا حيويا بيولوجيا يشارن فيه بين الكائن الحى فى مختلف مراحلها وبين المجتمع . وهو بهذا يسبق « أوجست كونت » من ناحية فكرة تطور الحياة الاجتماعية ، كما يسبق « هيربرت سبنسر » فى فكرة بناء التطور الاجتماعى على الناحية الحيوية البيولوجية .

وابن خلدون يتحدث عن حركة المجتمع على أنها حركة جذب لادفع ، بمعنى أنه لا يبحث عن الأسباب الدافعة ، وانما يبحث عن الاهداف والغايات الجاذبة : فكل حالة تعرض للمجتمع البشرى لا تنفد عند حالة واحدة ، بل هى وسيلة لحالة أخرى قد تكون أحسن منها أو أضعف . فابن خلدون يضع اهداما وغايات لتطور المجتمع البشرى على نمط حركات الاجسام الحية التى تنتقل من مرحلة الى اخرى تتبعها وتجذب اليها الى أن تبنى . فالانسان يولد طفلا ، ويشقاق ويعمل ليكون صبيا ، ثم شابا ، ثم رجلا ، ثم هرما ، ثم يبنى . كذا حال المجتمع له أربع حالات هى بمثابة الاعداد عند الكائن الحى (٨٨) . يتحدثون للعيش مجتمعين . وابن خلدون يذكر ان الاسباب الطبيعية المتصلة بالظروف

(٨٨) عبد العزيز عزت « تطور المجتمع البشرى عند ابن خلدون » أعمال مهرجان ابن خلدون ، القاهرة ، المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ١٩٦٢ م ، ص ص ٤١ - ٤٣ .

الجغرافية وأن العوامل الاقتصادية هي التي تحدد انماط الشعوب . وهو يحاول أن يستخلص خطوط التاريخ الكبرى للأمة من طراز معاشها ومن أحوال بيئتها . ويرى البعض أنه كان مبشرا بمبادئ المادية التاريخية (٨٩) .

فالإنسان اجتماعي بطبعه . والاسلام حريص غاية الحرص على بناء المجتمع الاسلامي بناء قويا محكما ووضع له من القواعد الرصينة مايكفل له الصمود والشموخ . فالمجتمع الاسلامي يقوم على : الاخاء يقول تعالى « إنما المؤمنون اخوة » ، كما يقوم على العقيدة الواحدة يقول تعالى « وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ، ويقوم على المساواة . يقول الرسول الكريم « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ، ويقوم على العزة يقول تعالى « أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين » ، ويقوم على التكامل والتكامل فقد فرض الاسلام الزكاة وجعلها حقا « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » . واعتبر الاسلام المال وسيلة لا غاية ، وجعل الله الإنسان مستخلفا فيه يقول تعالى « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . واعتبر الاسلام الفقر مرضا اجتماعيا وليس قدرا مقدورا لاحيلة في دفعه بسعى أو كسب (٩٠) . ولم يكن التكافل ليقف عند حد المال بل التكافل يشمل كل مرافق الحياة ، فدعا الاسلام الى معاونة القوى للضعيف ، والى نصره المظلوم يقول الرسول الكريم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » .

كذا أيضا فإن المجتمع يقوم على الدعوة الى الخير ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » وشرح الاسلام الحدود حماية لهذا المجتمع من الانهيار والتصدع . وحل الديمقراطية أسلوب في الحياة .

(٨٩) غاستون بوتيول (ترجمة عادل زيتير) ابن خلدون « فلسفته الاجتماعية » ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٥٥ م ، ص ٤٧ ، ٤٨ .
(٩٠) مصطفى السباعي ، اشتراكية الاسلام ، الاتحاد القومي ، دار مطابع الشعب ، ١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م ، ص ١٣٠ .

ولقد صور الرسول الكريم هذا المجتمع في تماسكه وتكافله وقوة بنائه بقوله « مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

فالانسان له كيانه المستقل المميز ، وله طابعه الاجتماعى الذى يؤكد ذاتيته ، ويجسد وجوده الخاص . فحياة الفرد هى من حياة المجتمع ، وحياة المجتمع هى تجسيد وبلورة لحياة الفرد .

٦ - النوع فى الطبيعة الانسانية :

والاسلام فى تناوله للنوع فى الطبيعة الانسانية لايفرق بين الذكر والانثى ، فيعترف بالقيمة الانسانية للمرأة ، ويؤكد كل حقوقها التى تنفسيها الطبيعة الانسانية . والاسلام فى تقديره لقيمة المرأة انما يؤكد على دورها فى البناء والمساهمة فى النشاط الانسانى . فالمرأة هى نصف المجتمع ، وهى بعض الرجل ، وقد خلقت منه ليكمل بها ويأنس لها فى طريق الحياة . يقول تعالى « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » النساء : ١ . ويقول تعالى « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » ويقول تعالى « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » .

والله تعالى يوضح الغاية من خلق المرأة ، فهى تهب الحياة للحاضر والمستقبل ، وهى سر الاستمرار والديمومة . وبذا ينفى القرآن ما ترسب فى الازمان من أن المرأة سبب الشر وسر افساد البشرية ، وأنها التى أغوت آدم . والقرآن لا يكتفى بالنفى الضمنى ، بل يردف بقوله تعالى « وعصا آدم ربه فغوى » فيفرد آدم بالمعصية ، ويخصه وحده بالذكر ويحمل وزره ، وأنه المسئول وحده عن هذا السلوك .

وهذه القيمة الانسانية لا تتعارض ابدا مع الفارق الطبيعى بين الرجل والمرأة ، أو الذكر والانثى لأن هذا الفارق له دلالة ، فهى أولا آية من آيات الصنع الالهى ، ومظهر من مظاهر قدرة الله فى الازدواج والتكامل . والقرآن الكريم يشير لذلك فى أكثر من موضع قال تعالى « والليل اذا يغشى ، والنهار

إذا تجلّى ، وما خلق الذكر والانثى ، ان سعيكم لستى « ويقول تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » • فالازدواج ضرورى ولازم لنظام الكون ، فالملاك يقابله الشيطان ، والذكر تقابله الانثى ، حتى فى الجماد ، ففى عالم الكهرباء تقابل الشحنة الموجبة الشحنة السالبة ، وما هذا الانسان والتجاذب بين عناصر الكون وتماسك اجزائه الا بسبب الازدواج والتكامل • ويوضح هذه الحقيقة قوله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » •

ويقول الغزالى فى شرح معنى الاية « الموجودات كلها متقابلة الا الله تعالى فانه فرد لا مقابل له » •

ولهذا الفرق دلالة وظيفية أخرى تفرضها ظروف الحياة وحتمية الواقع ، فلا يمكن للمجتمع ان يستقيم أمره ، ويصالح شأنه الا اذا كان هناك تنوع فى العمل أو توزيع فى الوظيفة • ولكل وظيفة طبيعتها المميزة ، ولكل عمل استعداده الخاص فما يصلح له الرجل لاتصلح له المرأة • وكذا العكس • لقد أوتى الرجل بسطة فى الجسم ، وقوة فى البنيان لأن وظيفته تقتضى ذلك • وكانت المرأة دونه لان وظيفتها تغاير وظيفته • فالمرأة تتعرض لأعباء الحمل والرضاعة وغيرها • وهذه الأعباء تجعل من الواجب أن تكون هناك رعاية خاصة بها ، وعناية متوفرة لها • وقد كان أن خفف الله عنها فى العبادات هذا من جانب الله تعالى • أما من جانب الرجل ، فقد أوجب الله تعالى عليه كفالتها من كل وجه • بالاتفاق والرعاية والحماية ولأن وظيفة الامومة يجعلها غير قادرة - أحيانا - على العمل له أو التفرغ له كما يجب •

من هنا يتضح ان طبيعة العمل وحتمية الحياة توجب تنويع النشاط ، وتحديد الوظيفة ، فما خلق له الرجل لم تخلق له المرأة • وما يؤديه الرجل يتكامل مع ما تؤديه المرأة ، وان كان مغايرا له •

وإذا كان الاسلام قد جعل القوامه للرجل فما ذاك الا مراعاة للظروف وتقدير للأعباء التى ينهض بها كل منهما فلا يمكن للمرأة أن تتحمل مسئولية الأسرة أو أن تدير شئون المنزل بمنأى عن الرجل • كذا لا يمكن أن تكون لها

القيادة خاصة وأن عليها من التبعات والواجبات ما يثقل كاهلها • فالواجب الإنسانى يحتم أن ينفرد الرجل بالقيادة وأن يتفرغ لها وأن يساهم بذلك فى التخفيف عن كاهل المرأة •

فالقوامة ناشئة عما توافر للرجال من صفات القوة المتنوعة التى تتطلبها الحياة ، وأيضاً لما تتصف به المرأة من رقة ولين يجعلها غير قادرة على قيادة الحياة الاسرية •

والرجل والمرأة مطالبان بالايمان وعما أمام القانون سواء • وفى الجزء متساويان يقول تعالى « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » • ويقول تعالى « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فيها » • وعما يشتركان فى المسئولية يقول تعالى « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » •

كما يجمع بينهما القرآن فى فضائل الاعمال يقول تعالى « ان المسلمين والمسلمات ، المؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات • والذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجرافظيما » •

وقد كفل الاسلام لها حقوقها بما فى ذلك حق العقيدة فيقول تعالى « ياأيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحوهن ، والله أعلم بايمانهن ، فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى ائكفار لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن » المتحنة : ١٠ (٩١) •

(٩١) محروس سيد مرسى ، « تربية المرأة المصرية بين انكر الاسلامى والفكر الغربى فى القرن التاسع عشر » ، رسالة ماجستير (غير منشورة) ، جامعة أسيوط ، كلية التربية ، ١٩٧٦ م ، ص ص ١١ - ١٧ •